مكتبة ياسمين

# صورة مفقودة

أسمى العطاونة

رواية

دار الساقي

كل ما تبحث عنه أسماء هو 'مساحة من الأمتار المربّعة هادئة وآمنة' تضع فيها سريراً صغيراً وطاولة. تخوض رحلة هرب من غزة إلى إسبانيا، يعقبها هرب آخر إلى فرنسا.

كل ذلك بعيداً عن عيون أهالي حارة السود المتلصّصة، ومجتمع كلما ازداد عليه ضغط الاحتلال، زاد قسوة على نفسه، حاملاً مع خيمة هجرته تقاليد عفّاها الزمن.

أسمى العطاونة كاتبة فلسطينية فرنسية.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ISBN 978-614-03-2100-7

9 786140 321007 >

DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com

AFAC آفاق
www.arabculturefund.org

أسمى العطاونة

# صورة مفقودة

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

دار الساقي

آفاق AFAC

© دار الساقي 2019
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2019
ISBN 978-614-03-2100-7
تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين
دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866 1-961+، فاكس: 443 866 1-961+
email: info@daralsaqi.com

والصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13–5290، لبنان

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثالثة، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى غزة

## الجزء الأول

# ارحل

# I

هززت جسد الرّجل الممدّد على الطريق الحجريّ يمنةً ويسرةً لأتأكّد من أنّه لا يزال على قيد الحياة. وضعت أذني على صدره لأستمع لدقّات قلبه بعد أن رأيته ممدّداً من دون حراك. نظرت من حولي لعلّني أجد مارّاً في هذا الوقت المتأخّر من الليل. لكنّني لم أجد سوى الصّمت القاتل والمخيّم على المكان. لم يكن هناك صوت غير خيط من الماء يسيل من فم أسد حجريّ، ويصبّ في نافورة دائريّة تتوسّط ساحة سانت إيتيان مقابل كنيسة الحيّ في مدينة تولوز الفرنسيّة. فكّرت فوراً في رشّ وجهه بالماء البارد، فصرت أملؤه بيدي لأنقله من فم الأسد إلى وجهه، حتّى أخذ يسعل بصعوبة، واطمأنّ قلبي لأنّه لا يزال حيّاً يتنفّس. جررته إلى جدار النّافورة، وركّزت ظهره كي أسهّل على نفسي عمليّة نقل الماء. كانت رائحة قيء نتنة تفوح منه، وقد اختلطت برائحة بول تهيّج كلّما تحرّك، وكانت تهبّ من فمه رائحة كحول كلّما سعل، رائحة تشبه رائحة جيف الجرذان الّتي يصطادها أبو ريالة في حارة السّود

حيث كنت أعيش. وكان القيء يغطّي معطفه وقفازاته الصّوفية دون أصابع. غسلت يدي بماء النّافورة البارد، ونظرت إلى السّاعة في معصمي. كانت تشير إلى الرّابعة فجراً. رمقته بنظرة أخيرة لأطمَئِنّ إليه، ونظرت إلى وجه الأسد الحجريّ الذي كان يشبه إلى حدّ ما وجه هذا الرّجل الغريب، وإلى خيط الماء الذي يسيل من فمه الفاغر فأتخيّله قيئاً أيضاً. هرولت كي لا أتأخّر عن موعدي باتّجاه مبنى البريفكتور، وهو مبنًى حكوميّ تابع لبلديّة تولوز حيث كانت نتالي في انتظاري. وصلت لأراها هناك تنتظرني، وتركّز بظهرها على سيّارة صغيرة. مدّت إلي بكوب قهوة ساخن أحطتُه بأصابعي كي أشعر بقليل من الدّفء، وغطّيْتُ شعري المبلّل بقبعة المانطو الطويل.

كانت نتالي امرأة قصيرة في مقتبل الأربعين. شعرها أسود قصير، يغطّيها الزمن بتجاعيده، وتفقدها الملفّات الثقيلة حدّة البصر، فترتدي نظّارة طبّية ذات زجاج سميك كالذي كان يلبسه جارنا البلبيسي صاحب الدّكان الوحيد في حارة السّود. لم أرَ ماكياجاً يغطّي وجهها يوماً، ولم أرَها ترتدي فستاناً أو تنورةً منذ معرفتي بها، ففكّرت أنّه قد يكون ذلك بسبب جدّيّة عملها محاميةً ترافع في قضايا المهاجرين واللاجئين في المحكمة. واعتقدت أنّ القضاة لن يأخذوها على محمل الجدّ إن دافعت عن اللاجئين وهي ترتدي فستاناً أو تنّورة مزركشة الألوان، فأنا أعلم تماماً وعن

تجربة أنّني أيضاً يجب أن أرتدي الألوان الغامقة التي تغطّي معالم أنوثتي إن أردت أن أؤخذ على محمل الجدّ. فكيف سأثبت لهم أنّني جئتُ هاربة من الموت، وأنّني لا أحمل سِنتيماً في جيبي الآن إن أتيتهم وأنا متبرّجة بقلم حومرة وأرتدي فستاناً يظهر ملامح أنوثتي. سرحت في تفكيري، فأعادني صوت ناتالي إلى مكاني أمام البوّابة الآليّة الحمراء التي ثبّتت في أعلاها كاميرات مراقبة سوداء لكي تراقب تحرّكات أجسادنا في هذه الظّلمة.

اقتربْنا من البوّابة بعد أن صار عدد المتزاحمين عليها يزداد ببطء، وحاولت أن ألامس حديد البوّابة البارد بعد أن ألصقت وجنتي عليه لكي أكون من الأوائل في طابور الانتظار الطويل. اختفت نتالي بين الأجساد التي شكّلت مجموعة ملتحمة رغم تنافر أفرادها، وذكّرني ذلك بمجموعة من سمك السردين الّذي يسبح يمنةً ويسرةً ليصل ليلاً إلى السّطح ويتغذّى بالعوالق. فتحت البوّابة الآليّة عند التّاسعة صباحاً، وما إن صدر صوت صريرها، حتّى صرنا ندوس على أقدام بعضنا بعضاً في صراع للحصول على الأماكن الأولى في الطابور، قبل إغلاق شبّاك تذاكر الانتظار.

دخلنا المبنى الحديث حيث يستقبلنا مكتب دائريّ مرتفع الحجم، تختفي خلفه موظّفة الاستقبال البدينة، نكاد لا نرى منها سوى أظفارها الحمراء المعكوفة من شدّة طولها. أشارت إلينا بالتوجّه إلى مكان الطّابور المخصّص لطالبي اللّجوء الجدد.

اصطففنا جميعنا بانضباط بين خطّيْن وهميّيْن نحاول قدر استطاعتنا ألّا ننحاز عنها كي نتجنّب صراخ موظّفة الأمن التي تتربّص بتحركاتنا كتربّص أبلة زينب لنا حين كنّا أطفالاً صغاراً في مدرسة دلال المغربي للاجئين. كنّا من أجناس وألوان مختلفة نتشابه في أسباب مجيئنا إلى هذا المكان. رغبتنا البسيطة أن نظلّ على قيد الحياة.

تنفخ نتالي في الهواء متذمّرة، يصدر من جسدها توتّر وحركات عصبيّة، وتخبرني بالإنكليزية وبصوتٍ يصل من بعيد إلى أذن المراقبة الأمنية أنّها تشعر بالعار بسبب المعاملة المهينة التي نضطرّ إلى اجتيازها كلّ صباح. وتكمل حديثها معي أنّها توجّهت بطلب رسميّ هي وزميلاتها المحاميات في "منظّمة العفو الدّولية" إلى مدير البريفكتور أن يزوّدونا بكراسٍ للانتظار، خاصّة للنّساء الحوامل ولكبار السنّ والأطفال. أسمعها تتحدّث وأصلّي في سرّي كيلا تفهم ضابطة الأمن كلامها، فتنتقم منّي، وترفض طلبي، وتعيدني إلى حارة السّود من حيث هربت. وددت أن أطمئن نتالي أنّني لا أشعر بإهانة ولا ازدراء، وأنّ استيقاظي عند الثالثة صباحاً ومجيئي اليوميّ إلى هنا لأنتظر فتح الأبواب الحديديّة لا يُقاس بالإهانة التي شعرْتُ بها عند معابر الحدود التي يسيطر عليها جيش الاحتلال الإسرائيليّ، ولا يُقارن بالإهانات النفسيّة والمذلّة التي تعرّضت لها من أبي وأهلي ومن أهالي حارة السود في غزة. رجوْتها أن تصمت لو قليلاً لكي يمضي الصّباح على خير، وأتمكّن من مقابلة الموظّف

المسؤول الّذي سيسلّمني ورقة تحميني من العودة إلى حالة الصّفر أو إلى موتي المحتّم، وإن لم يكن جسديّاً، فإنّه حتماً سوف يكون قتلاً نفسياً متعمّداً من الرجال والنساء في حارتي.

حان دوري، ودار حوار مطوّل بين نتالي المحامية التي تطوّعت من أجل أن أحصل على قرار قبول حمايتي وبين الموظف المسؤول. تحدّث الاثنان بالفرنسية، وأنا لم أفهم منها شيئاً سوى كلمة "باليستين"، فلفظها يشبه اللغة الإنكليزيّة وتعني فلسطين. أعطاها الموظّف ورقة بعد أن ألصق في أعلاها صورتي الشّخصيّة، وختم الصورة بختم لا أزال أراه بعد أن غطّسه بالحبر، ولا أزال أسمع ضربه على الورقة. أعطتني نتالي الورقة، وشرحت لي أنّ الورقة فيها ثلاثة مربّعات يجب أن تختم عند نهاية كلّ شهر، وقبل انتهاء تاريخ الختم الأوّل إلى حين البتّ في القرار النهائيّ بأن أحصل على بطاقة الإقامة التي تشرّع بقائي القانونيّ على أرض فرنسا. مرّت الأشهر الثّلاثة الأولى وتلتها ثلاثة أخرى وأنا أستيقظ عند الثالثة صباحاً لأصل عند الرّابعة أمام البوّابة الحديدية لأجد طريقاً لنفسي بين الأجساد المتزاحمة، وأقف أمام الموظّف الذي سيضع الختم في أحد المربّعات. بقيت على هذه الحال منذ وصولي عام ٢٠٠١ حتّى ٢٠٠٣ حين حصلت أخيراً على بطاقة إقامة متجدّدة صالحة لمدّة عاميْن أستطيع بعدها الحصول على بطاقة بصلاحية تمتدّ إلى عشر سنوات.

II

وصلت إلى مدريد في صيف ٢٠٠١ وساعدني في الهرب من السّجن الذي كنت أعيش فيه أستاذي الإسباني خوسيه. تعرّفت إليه خلال عملي في وكالة إخبارية إسبانيّة في غزّة. كان يعمل في حفر الآثار، وقد جاء إلى فلسطين لاحقاً حيث حبيبته اليهوديّة تعمل في التنقيب عن الآثار في القدس. قرّر أن يعيش معها ليعملا معاً في التنقيب عن الآثار في فلسطين المحتلّة التي لا يُسمَحُ لي بدخولها. وقرّر خوسيه العمل أستاذاً للغة الإسبانيّة في غزّة بعد فراقه حبيبته اليهوديّة. وبدلاً من أن يعود إلى إسبانيا، جاء إلى غزّة خاصّة بعد أن تمّ تأسيس جامعة الأزهر في التسعينيات. أفكّر مليّاً في أنّ مجيئه إلى هنا وفراقه عن اليهوديّة قد يكون لإنقاذي بعد أن رفض "المعهد الثقافيّ الفرنسيّ" منحي الفيزا لفرنسا. وبدلاً من أن أشعر بخيبة أمل، قرّرت أن أتقرّب من خوسيه، وأطلب منه أن يساعدني في الحصول على فيزا إلى إسبانيا بدلاً من فرنسا، فأغيظ زميلتي في الجامعة التي شعرت بتقرّبها المبالغ به منه. تمعّنت

في ما يدور من حولي، وفكّرْتُ جيّداً، ووصلت إلى نهاية مقنعة أستطيع بها تخفيف تأنيب الضّمير الذي ينهش قلبي حين أرى ازدياد تعلّق خوسيه بوجودي إلى جانبه. شعرت أنّني لا بدّ من أن أنتقم منه وأعاقبه. أردت معاقبته لتنقيبه عما لا يعنيه وبمساعدة يهوديّة سارقة قد يكون كامل هدفها سرقة آثار فلسطينيّة لتزيّن بها شقّتها في بيتها الآخر في أوروبا تلجأ إليه كلّما شعرت بالضّجر أو بالخوف على نفسها من تدهور الوضع الأمنيّ. سرعان ما تحوّلت شفقتي على تعلّقه بفتاة بائسة مثلي إلى غضب، لبعثرته مع اليهوديّة في أغراض تخصّني. رسمت ابتسامة ماكرة، وثبتُّ الوشاح على رأسي، وتوجّهت مع زميلتي إلى الطابق الأوّل من المبنى الجامعيّ.

قهقهت زميلتي وانفجرت ضاحكة حين أخبرتها عن خطّتي، ضحكت منّي ومن حلمي في الهرب من جحيم هذا السّجن الكبير الذي يتّخذ من السّماء سقفاً له، وتابعت ضحكاتها حين فضحت سرّي لها، وأفصحت لها عن تعلّق خوسيه أستاذ اللّغة الإسبانيّة بي وبحثه للزّواج بفتاة مسلمة تساعده في تعلّم الدّين الجديد. ففي رأيها كلّ هذا مجرّد أوهام لكي أهرب من واقعي البائس، ومن الرّعب الّذي يبثّه أبي في قلبي إن لم أعد إلى المنزل في الوقت المحدّد، ومن تهديداته المستمرّة بقتلي بعد أن شاع صيتي السيّئ في الحارة، ما جعله يأخذ إجازة من عمله، ويعمل جاهداً على تهذيبي. شعرت بالخزي والعار لأنّني حلمت، وتمنّيت لو أنّ الأرض تنشقّ وتبتلعني الآن وفي هذه اللحظة التي أقف فيها إلى

جانبها. رجوتها ألّا تخبر الأخريات عن الأمر كي أتجنّب الفضيحة والسّخرية منهنّ ومن خوسيه إن وصل الأمر إلى مسامعه. نعتتني بالمجنونة وبالبلهاء السّاذجة التي تحلم بأمير سيأتيها على ظهر حصانه ليخلّصها من العلامات الزرقاء التي تغطّي وجهها وجسدها بعد أن أبرحها أبوها ضرباً شديداً بسبب جنونها وتمرّدها الدائم عليه وعلى أهالي الحارة.

استأذنت منّي، ودخلت صفّ الأدب الفرنسيّ الذي تدرّسه معلّمة بلجيكية، وبقيت هنا وحدي أنظر من أعلى الشرفة إلى الطالبات يدخلن ويخرجن من البوّابة، أنظر إليهنّ وأؤكّد صحّة كلامها لي خاصّة أنّني أعيش في هذا السّجن الذي يمتلك مفاتيح أبوابه جنود محتلّون يقرّرون وحدهم أيّام فتحه وإغلاقه والنّاس المخوّلين الخروج منه ودخوله، هم وحدهم ترافقهم كلابهم البوليسية، ويشدّدون حراسة المنافذ الوحيدة التي تمكّنني من النجاة.

تذكّرت رجلي أبي اللّتيْن تركلانني في بطني وظهري، ويديه اللتين تسحبانني من شعري لكي أخرج من تحت لحافي لأكون فرجة أمام أهالي حارة السود كلّهم، وكأنّه يطمئن قلوبهم أنّ الأمور لا تزال تحت سيطرته، وأنّ كلّ فتاة تختار التمرّد والالتصاق بحدسها ستعاقب مثلي أمام أعين الحارة التي تعيش فيها. يضربني ويبصق في وجهي، وعيون أم ريالة والبلبيسي وأكرم أبو راس تثبّت أنظارها على جسدي المنهك، كلّ هذا الغضب لأنّه تلقّى

مكالمات عدة تخبره عن سوء تصرّفاتي ووقاحتي بارتداء الجينز الضيّق ورفضي ارتداء الحجاب وقلة احترامي مشاعر أهل الحارة. تحسّست الانتفاخ في أسفل عينيّ بسبب الكدمات العنيفة، واقتربت من باب الصّفّ لأستمع للهجة المدرّسة البلجيكيّة وهي تتحدّث الفرنسيّة، هذه اللّغة التي لا أفهم منها شيئاً. استمعت لحديثها، وحملتني اللغة التي تنطق بها إلى عالم آخر جميل وبعيد يتحدّث فيه الجميع بلطف وحنان، إلى عالم بطل روايته رجل فقير ويتيم له حدبة في ظهره يعيش بين الأجراس الضخمة ويتحدّث إلى حيوانات حجرية ليسلّي نفسه. فكّرت في وجه أبي حين يرى صورتي وأنا بين الأجراس أبتسم في وجهه بعد نجاحي في الهرب منه. وفيما كنت سارحة بين أجراس نوتردام ووجه أبي الغاضب، أغلق الحارس بوّابة الجامعة الرئيسيّة، وربّتت المدرّسة على كتفي، فشعرت ببدني كلّه يهتز. ابتسمت، واعتذرت بالإنكليزية لإخافتها لي، وأشارت إليّ أنّ الجلوس على مقعد في الدفء في الداخل سيكون أفضل من أن أظلّ واقفة هنا لأسترق السمع. خجلت من عرضها المفاجئ، ودخلت القاعة الصّغيرة وأنا أنظر إلى الأرض كي لا تصادف عيناي عيونَ الأخريات.

كانت هذه الحصّة هي البداية، فقد شكّلت كرة ثلج كبيرة أو بالأحرى الشرارة التي أشعلت نيران الرّغبة في الهرب الاضطراريّ للنجاة بنفسي من الموت، قبل أن يلقيني أبي كجرذ في حاوية تقع داخل هذا السّجن الكبير.

تحدّثت مع خوسيه عن رغبتي العاجلة في الفرار خاصّة بعد أن شعرت باطمئناني إليه كونه غربيّاً وكونه مسلماً وأجنبيّاً يبحث عن حبيبة مسلمة، ولن يكون تفكيره متشدّداً كتفكير الآخرين الذين يحيطون بي في هذا السّجن. ساعدني في الحصول على الفيزا التي ستغيّر مجرى حياتي تغييراً كاملاً. حضّرت للأمر جيّداً. رحل أبي بعد أن اطمَأنّ إلى أنّني استعدت رشدي ولن أضلّ الطريق المستقيم الذي رسمه لي بخيزرانته. وفي صيف ٢٠٠١ تحديداً، هربت مع خوسيه إلى مدريد.

عشت مع خوسيه في شقة صغيرة تقع منتصف مبانٍ عالية وبشعة، في شارع لا أذكر اسمه، وذلك يعود إلى سبب بسيط هو أنّني ولدت في حارة بُنيت فيه دور اللاجئين بعشوائيّة ومن دون أرقام. وأمّا الشوارع، فهي شوارع رملية وزقاق تمتلئ بالقذارة ورائحة البول، تجري فيها مياه الصرف الصحي خاصة في الأيام الشديدة المطر. كنت بهذا لا أعرف أنّ للشوارع أرقاماً وللمباني أسماء وعناوين، ولم أشاهد مظروفاً في حياتي سوى عند وصولي إلى هنا. فالرسائل في الحارة تكون عادة شفويّة يتناقلها الصبية فيما بينهم وتتناقلها الجارات وجهاً لوجه. بهرت بالنظام والأرصفة المبنية والإشارات التي يحترمُها المارّة فيقفون وفق الألوان التي تظهر على الشّاشة.

كان خوسيه يعيش مع والديْه نظراً إلى غلاء المعيشة، وهو ما زاد ضيق الشقة الصّغيرة. امتلأت بالكمّ الهائل من الكتب في مختلف

زواياها لتتوزّع في أرجائها شتى وتتشعّب لتصبح على هيئة نبتة متسلقة وتصل إلى الشرفة وتخترق بجذورها كهفها. ربّما يعود هذا النهم الكبير للقراءة وحيازة الكتب إلى عمل أبي خوسيه مؤرّخاً وأستاذ تاريخ بعد عودته من المغرب.

يخرج خوسيه مع أبيه في الصباح الباكر، ويذهب كلٌّ في طريقه، فيما نظلّ أنا وماريا، أم خوسيه، التي تنزل إلى السّوبرماركت أسفل البناية لتشتري أغراضاً منزلية. فأظلّ وحيدة تؤنسُني في وحدتي قطط ثلاث تموء كلّها في وقت واحد، فيصبح المواء مزعجاً كلّما اقتربت خطوات ماريا من الدّرج المؤدّي إلى الشقة. تفتح الباب فتركض نحوها، وتلفّ إحداها ذيلها حول جواربها البنية والشفافة. تحدّثها ماريا بإسبانية لا أفهمها، وتفرغ في صحونها البلاستيكية علباً من صفيح رسم عليها وجه قطة. فهمت أنّه طعام خاصّ بالقطط، وفكّرت فوراً في القطط المسكينة المشرّدة في حارة السود، يركض خلفها الصبية بالحجارة أو تدسّ لها أم ريالة السمّ بعد أن التهمت سمك السردين من الطبق الموجود بجانب جرّة الغاز الصغيرة، والقطة البائسة التي ألقى بها جارنا البلبيسي من أعلى جداره لأنها تبوّلت على شراشف سريره فانكسر ضلعها، واختبأت لتموء في زاوية في الظلمة إلى أن ماتت وحيدة.

أجلس أمام طاولة المطبخ الحمراء الصغيرة حيث وضعت ماريا صحناً أبيض مزخرفاً فيه فواكه بلاستيكية ملوّنة. أنظر إليها وهي تحضّر وجبة الإفطار التورتيا أو البيض والبطاطا، وتقطع إلى جانبها

شرائح رفيعة من جبنة المانشيغو الإسبانية، وتدهن شرائح من الخبز المحمّص بالطّماطم الطازجة وزيت الزيتون وفص ثوم. تحضّر الطعام بمهارة تجعلني أشعر بدفء قلب هذه المرأة الخمسينية التي يغطي الشيب شعرها القصير. ورغم عجزنا عن الحديث بسبب عائق اللغة، أشاهدها وهي تطوي مريول المطبخ بحركات يد رشيقة لتربطه حول خصرها، وأبتسم لأنني أراها منهمكة وهي تغني وتحضّر الفطور، تحاول أن تنطق باسمي من حين إلى آخر فأصحّحه لها:

– أز...مة.

– نو...نو... أسمى... سه!... سه.

– آآآه... أسمى.

وتشرح لي وهي تدقّ على صدرها وتحبس أنفاسها وتخرجها أنّ أزمة تعني بالإسبانية، كما فهمت، نوبات ضيق نفس!

يصحبني خوسيه عند عودته في المساء لزيارة بعض أصدقائه الذين يجتمعون حول طاولة فُرشت بصحون ووجبات مختلفة تسمى التاباس، وتشبه في هذا صحون المزة الصّغيرة وفيها أصناف مختلفة من الأكلات. يتحدّثون بصوت عالٍ وفي وقت واحد، فيخلق الشغب اللطيف في الأجواء، وأغتنم الفرصة بما أنّني لا أفهم كلمة ممّا يقولون لتذوق الأطباق المختلفة، وأشعر بمدى قربهم منّا ومن طعامنا. فالزيتون موجود بألوان متعددة وكذلك الفلفل والطماطم المشويّة. وأكثر ما أحببته سمك الأنشوفيز، وهو

سمك صغير ومالح يُغرقونه بالزيت. تركتهم يتحدثون ويضحكون وصرت أداعب طفلة صغيرة ربطت في عربة تهزّها أمّها من وقت إلى آخر وتعيد إليها لعبتها التي تلقيها مراراً على الأرض وتبكي. أنظر إلى الطفلة وأفكّر أنّنا نتشابه إلى حدّ ما في كوننا لا نفهم ما يجري من حولنا، لكنّها تبكي وأنا ألهي نفسي بالأكل.

في طريق عودتنا إلى الشقة، حدّثني خوسيه عن نيّته في أن يصبح إمام مسجد بعد أن التحق بالحركة الصّوفية في المغرب وأصبح لديهم عدد لا بأس به من المسلمين الجدد. لم أفاجأ برغبة خوسيه في أن يكون مسلماً وهو في سنّ كبيرة بقدر ما فوجئت بعبثه وتنقيبه في أرضي مع يهودية. لكنّني شعرت بخيبة كبيرة حين أخبرني عن ذلك خاصة أنّني أحاول الهرب ممّا يريد التعلق به. فأخبرته أنني لا أستطيع أن أشجعه على ذلك بسبب ما عانيته من أصحاب اللحى المنافقين، وبخاصة أستاذ الحديث الذي كان يُرهب البنات إن سقط حجاب الواحدة منهنّ سهواً وكشف عن شعرها. وفكّرت في أنّ إسلام الأجانب قد يكون ألطف من إسلامنا، وذلك بسبب عقليتهم المتحرّرة أكثر، كما اعتقدت.

لم أناقشه في الأمر وتركته يفعل ما يحلو له، فأنا في النهاية لست مثالاً للمرأة المسلمة التقليدية. جئت لأتحرّر من كلّ الأعباء التي أُلصقت بي منذ طفولتي، تلك الّتي لم أخترها لنفسي. فكّرت في أنني لا بدّ من أن أتعلم الإسبانية كي أتمكّن من أن أتأقلم مع والديه وأصدقائه، ولأنها الطريقة الوحيدة التي ستحرّرني من إعاقتي في

التواصل مع الآخرين. رقصت من الفرح حين وصل الرّد بأنني قبلت في المعهد، وسأبدأ صباح الإثنين المقبل. صرت أتحدث إلى القطط بالعربية، وأنتظر عودة خوسيه لأخبره عن ذلك.

في اليوم الأوّل، تحدّثت إلى طلاب آخرين قدموا إلى مدريد من مختلف أنحاء العالم لتعلّم اللغة وقضاء إجازة الصيف. فرحت لأنني أستطيع أن أتواصل مع آخرين غرباء في مثل حالتي، وفي بداية المساء، صرت أمشي في المدينة لأتعرّف إلى شوارعها وأنتظر قدوم خوسيه لاصطحابي إلى الشقة. في اليوم التالي، بعد أن لاحظت وجود متحف وراء المعهد، تحمّست لزيارته خاصة أنّها المرّة الأولى التي سأزور فيها متحفاً في حياتي. انتظرت انتهاء الحصص، ودخلت المتحف بسرعة، فاستقبلتني لوحة أثارت الرّعب في جسدي. هي لوحة لطير مذبوح يتدلّى رأسه من أعلى طاولة طعام خشبية، ذكّرتني بدجاج جدتي المذبوح وهي تُغطسه بالماء المغلي لكي تنتف ريشه. هربت من الفور إلى لوحات أخرى لأدقّق في وجوه وأجساد رجال ونساء يقفون بجدّية ويوجّهون أنظارهم إلى الرّسام الذي طبع بريشته على وجوههم جدّية وملامح صارمة ومخيفة لا تشعر بالرّاحة. وما زاد شعوري بقلة الارتياح الألوان الغامقة التي زيّنت الديكور الخارجي الذي يقفون أمامه.

صعدت إلى الطابق الأوّل، فلفتت نظري لوحة عملاقة تختلف كليّاً عمّا رأيت في الطابق الأرضيّ. هي لوحة مفعمة بالتفاصيل الصّغيرة والمحشوّة في تفاصيل كبيرة. لم يكن فيها وجوه أو

أجساد إن لم تخنّي ذاكرتي في هذا العمر. رأيت ساعات حائط ذائبة ملقاة في أماكن مختلفة. أتذكّر تفشّي نمل أسود في زاوية من زواياها، شعرت بتوقّف الوقت من حولي ولم أعد أشعر بمكان وجودي أو بالوقت المتأخر وسواد الليل في الخارج. شدّتني اللوحة إلى نملها الأسود، فصرت أعدّه نملة نملة. قفزت في مكاني مرتعبة حين لمس أحدهم كتفي بأصابعه، استدرت لأراه، فارتعش جسدي من الخوف:

-إكسكيوزمي... يور بينسيل!

حاولت أن ألتقط قلمي الذي سقط على الأرض وأنا أنظر إلى جسده الأسود الطويل. لقد كان شاباً نحيفاً تغطّي وجهه لحية سوداء طويلة، يرتدي قبّعة سوداء. لم أستوعب ما يجري، فآخر مرّة رأيته فيها كانت فوق حاجز عبور منذ وقت طويل. ظننت أنّ "الموساد" قد أرسله إلى هنا لملاحقتي وإعادتي إلى حارة السّود. فركت عينيّ جيّداً لأستيقظ بعد أن شعرت أنني أحلم خاصّة بعد تركيزي المكثف على النمل الأسود الذي تحوّل إلى هيئة هذا الشاب. ابتسم، ونظر إلى اللوحة، وأشار إليها بإصبعه: "دالي".

-هاا...؟

-ذيس إز أ دالي بينتنج! هى إز كريزي (هذه اللوحة لدالي وهو رسام مجنون).

احمرّ وجهي، وأبديت نفوري من وجوده ووجودي في المكان نفسه، وتمنّيت لو أنّ السّاعات تتوقّف عن الدّوران وتخلّصني ممّا

يحدث هنا. فكّرت في حظي الأسود ونحسي الذي حدثتني عنه أمّي، نحسي الذي يلاحقني منذ لحظة ولادتي ويجلب لي هذا المخلوق الذي يغطيه السواد بعد أن تركت له حارة السود بل تركت له الجمل بما حمل. استطعت الإفلات منه ومن ابتسامته الغريبة رغم أنّه رأى ارتعاش جسدي خوفاً منه، وشعرت بعقدة في لساني، فخرست، ونزلت إلى الطابق السفلي لأنقذ نفسي منه، ومن رأس الطير المذبوح، ومن الريش المنتوف، ومن هذا الكمّ الهائل من النمل الأسود الذي لم أنتهِ من عدّه. عدت إلى مقهى المعهد، وكنت أنظر خلفي في كلّ مرّة لأتأكّد أنه لا يلاحقني. أطلقت تنهيدة، وحاولت أن أنهي الدروس التي تعلمتها في ذاك اليوم إلى أن وصل خوسيه، وعدت معه إلى الشقة بسلام.

في مساء اليوم التالي، انتظرت خوسيه في المقهى القريب من الشقة أمام السوبرماركت، وحين وصل كان المكان مزدحماً. انتقلنا إلى طاولة صغيرة في الزاوية الهادئة، طلبنا زجاجة كوكاكولا باردة، وحين باشرت بالكلام لأحدّثه عن الحصص وعمّا حدث معي في المتحف، قاطعني من الفور، وأمسك بيدي وقبّلها. باشر بالحديث بحماسة، وبدت على وجهه الطفوليّ ملامح سعادة لا تنتهي، تشوّقت لمعرفة ما يحدث، فأرعبني بحديثه عن رغبته في الزواج بي قبل نهاية الشهر وقبل نهاية فيزا الشينغن التي تسمح لي بالبقاء لمدة وجيزة في أوروبا. أعادني للحظة إلى واقعي البشع. تمالكت نفسي، وفكّرت أنني لم أهرب من خنقة حارة السود ومن

سلطة أبي لأسجن نفسي في خنقة أخرى معه خاصة بعدما رأيت عن قرب مدى تشدّده الديني. أفزعني ما عرضه عليّ في الزواج بي والبدء بالإجراءات القانونية لحصولي على الإقامة والجنسية الإسبانية. حُشرت في زاوية لن أخرج منها سوى بالهرب منه ومن هذه الشقة وإن كلّفني الأمر حياتي.

كانت ليلة طويلة لم أغمض فيها عينيّ، تقلّبت فيها كثيراً، ونظرت إلى الصّليب المعلّق فوق سريري وصورة خوسيه في طفولته ألصقت بجانبه. دفنت رأسي بالشرشف لكيلا يتشتت تفكيري. قرّرت الهرب منه ومن دون تفكير.

حلّ الصباح. سمعت قفل باب المدخل، وتأكّدت من رحيله. استحممت، وحملت حقيبة الظهر التي وضعت فيها كتبي ودروسي. ودّعت ماريا قبل أن تنزل إلى السوق، وتوجّهت إلى محطة المترو القريبة، ووصلت إلى المعهد، وانتظرت أمام درج الخروج من المترو، أنظر بقلق إلى ساعة يدي.

رأيته يتقدم في اتّجاهي حاملاً معه باقة ورود بيضاء كبيرة. ابتسمت وتنهّدت تنهيدة طويلة وركبت معه في سيارة سيتروان فضية. لم أنطق بأيّ كلمة. ركّزت نظري على الإشارات الصّفراء المرسومة على الإسفلت، وحاولت عدّ تقاطعها، ولكنّني غفوت. وصلنا بعد تسع ساعات إلى منطقة الحدود الفرنسيّة. نظر إليّ مبتسماً، وقال بالإنكليزية: "لوك... ذا بوردرز... ويلكوم تو فرانس (انظري... الحدود... أهلاً بكِ في فرنسا!)".

## III

مضى أسبوعان على وصولي إلى موريه في الجنوب الفرنسيّ مع جان جاك الذي استقبلني في الإستديو الصغير حيث يعيش. يقع الإستديو في الطابق الأخير من عمارة صغيرة مكوّنة من أربعة طوابق، يتكوّن من مطبخ مفتوح على الصالون. تتوسّط الصّالون مكتبة خشبية كبيرة عليها صناديق بيضاء عدة، تفصل بين الصالون الصغير وسرير جان جاك الذي ينام عليه. كنت أنام على الكنبة التي تتحوّل إلى سرير في الصالون.

تعرّفت إلى جان جاك خلال عملي مراسلة حربية لوكالة إسبانية في غزّة حيث كان يعمل مصوّراً صحافيّاً متخصّصاً بتغطية قطاع غزّة. ساعدته كثيراً في كلّ زيارة يأتي فيها إلى مكتبي، فأصطحبه معي إلى أماكن المظاهرات والقصف، وبقينا على تواصل عبر الإيميل.

سرعان ما صرّح لي بقلقه من وجودي في شقته بسبب إجراءات طلاقه الحديثة من زوجته الإفريقية التي سيُجنّ جنونها إن علمت

بوجودي وستتسبّب له في مشكلات قضائية كبيرة تتّهمه فيها بالخيانة.

مُنعت من إحداث أيّ صوت أو ضجّة، فيشكّ الجيران بوجودي. كنت حبيسة هذا المكان في هذه القرية التي لم أزرها منذ وصولي. كنت أقضي يومي في تقليب صفحات الألبومات الكبيرة التي يحتفظ بها في الصّناديق البيضاء لأحاول قتل الوقت، وفي أحيانٍ أخرى، كنت أثبّت سمّاعات الأذن لأردّد كلمات بالإسبانية خلف صوت التسجيل، وأنظر إلى السماء المطلة من شباك الغرفة المفتوح وسط السّقف. لم أكن أجرؤ على الخروج وحدي خوفاً من أن يغلق باب الشقة، فأجد نفسي حبيسة في الخارج، بالإضافة إلى خوفي من أن أقابل أحد الجيران.

وعدني جان جاك باصطحابي معه إلى سوق الأحد. وعندما جاء اليوم الموعود، فرحت كثيراً، ولبست فستاني القطنيّ الأسود المزيّن بالورود الحمراء الكبيرة. لففت شريط حذائي حول أسفل ساقي، ورتّبت خصل شعري المتمرّدة. خرج قبلي، وأمرني أن أنزل خلفه في حال صادفنا أحد الجيران. أقفلت الباب برفق، ونزلت الدرج بحماسة حتّى أوقفني بقبضة يده على ذراعي، وطلب منّي أن أتوقّف عن إحداث أيّ ضجيج. انزعجت من تصرّفه، وشعرت بخوفي منه للحظات، وفكّرت أنني لا بدّ من أن أكون مسالمة كي لا يطردني في هذا المكان الغريب من العالم خاصة أنني لا أمتلك قرشاً في جيبي.

دخلنا معاً كنيسة القرية، وجلسنا في أماكن متباعدة. بدأ القسّ ترديد ترانيم لم أفهم منها شيئاً رغم محاولاتي في قراءة دفتر الأناشيد الصغير الموجود على المقعد الخشبيّ إلى جانبي. نظرت إلى العجزة الذين يحيطون بي، فشاهدت الخشوع على وجوههم. أحاول أن أقلّد ما يفعلونه فأجلس إن جلسوا، وأقف إن وقفوا. جلست فتاة إلى جانبي، وركعت على ركبتيْها، ثم بدأت الصلاة معهم. انتظرت إلى أن ينتهي جان جاك من صلاته. ثمّ شدّني من يدي ليعرّفني إلى قسّ القرية.

تبادل الاثنان الحديث بالفرنسية، ولم أفهم غير كلمة فلسطين. ابتسم القسّ في وجهي، وسلّم عليّ. فشعرت لوهلة أنني العذراء وصلت للتوّ من فلسطين إلى هذه الكنيسة. نظرت إلى تماثيل المسيح ومريم الملوّنة المعلّقة في زوايا الكنيسة. تأخّر الوقت، وتابع الاثنان حديثهما فيما ركعت على المقعد الخشبيّ أنظر إلى مريم، وأرجوها أن تبعث إلي بإشارة تخلّصني ممّا يحدث لي من مصائب.

لم ترسل إلي مريم شيئاً.

غادر جان جاك كعادته في صباح اليوم التالي، وبقيت في سريري أنظر إلى النافذة المعلقة أشعر بضيق في نفسي. فكّرت في حلّ يخلّصني من مأزقي. توجّهت إلى الحمّام، وأفرغت كلّ علب الدواء الموجودة في الخزانة البيضاء المثبتة فوق كرسي التواليت. بعد خلطها، وبعد أن اتّصلت برقم الطوارئ الملصق في المطبخ،

ابتلعتها كلّها. سمعت صفارة سيارة الإسعاف التي حملتُ داخلها. حاولت فتح عينيّ لأتأكّد من أنني ابتعدت عن الإستديو وعن جان جاك، ومن أنني الآن في مكانٍ آمنٍ. تبيّن لي وجه الممرّض الشاب الذي غطّاه الضباب. نظرت إليه، وضغطت بيدي على قلبي النابض أتمتم بصوت خافت: "قتلوه... قتلوا عبد الله!".

## IV

أيقظتني جوديت لأتناول فطوري، وساعدتني بعدها في التخلّص من ملابسي لأستحمّ. شعرت بالبرد كلّما مرّرت الماء البارد على كتفي وظهري، كنت أرتجف وأشير إليها أن تزيد حرارة الماء. يفلت لوح الصابون من يدي فتساعدني على التقاطه لأفرك به جسدي. انتهيت من الاستحمام، ولبست مريولي الأخضر المفتوح من ظهره. عدت إلى غرفتي التي تشاركني إيّاها شانتال. تنام على جانبها الأيمن كعادتها وتنظر إليّ وتبتسم، فيما تنشغل جوديت في قصّ شريط لفاف أبيض لتلفّه حول معصمي بعد تطهيره. تناولت حبة الدواء، وحاولت الاسترخاء على سريري.

شعرت براحة وأمان، في مصحّ سانت سيمون "ميزون دي ريبو" كما يسمّونه هنا، لم أشعر بهما منذ لحظة هربي من غزّة إلى مدريد، ومن مدريد إلى فرنسا، والآن هربي من جان جاك إلى هنا. لم أستطع أن أتحدّث إلى أيّ من الممرضات بسبب عائق اللغة، وربّما لأنني فقدت المقدرة على النطق بسبب صدمة نفسيّة حادّة أصبت بها.

حاول الدكتور الشاب الذي يتحدث بإنكليزية ركيكة نبش ذكرياتي ليعرف مصدر عقدة لساني الفجائية، وانهياري في البكاء إلى حدّ الصراخ في كلّ مرة أراه فيها. حاولت العودة إلى الوراء، فانهالت على رأسي ذكريات مؤلمة عدة مثل اللحظة التي صدمت فيها بصورة جثة عبد الله خطيبي الملحقة بخبر وفاته. أتذكّر أيضاً لحظة محاولة أبي فزاع قتلي حين رفع أنبوبة الغاز الكبيرة ليلقيها عليّ، وضربه لي أمام سكان حارة السود كلّهم. نصحني الدكتور بالرّسم للتّخفيف من الاكتئاب الحاد الذي أعاني منه، فصرت أقضي معظم الأوقات في الرسم والنحت، وفي أوقات أخرى، أجلس على المقعد الخشبيّ الأخضر في الحديقة أراقب الممرّضات يمشين مع المرضى. أوجّه رأسي نحو الشمس، وأحاول استمداد ما استطعت من دفء.

تشكّلت بيني وبين أحد المرضى علاقة حبّ صغيرة خفّفت ألم الدواء وثقل الذكريات. كنّا نهرب معاً إلى جدول الماء الصّغير الذي يمرّ في حديقة المصحّ الخلفية، يحدثني عن ابنته التي حُرم رؤيتها بسبب إدمانه الكحول. أهداني فريديرك صورة لا أزال أحتفظ بها، لحصان ذي لون بنّيّ يركض بين الأعشاب الخضراء، وقد كتب على خلفها بالإنكليزية: "فور يور فريه سول، وير إيفر يو جو، ستيه فريه آز يو آر (إلى روحك الحرة، أينما ذهبت ابقي كما أنت حرّة!).

## V

بعد مرور ثلاثة أسابيع على إقامتي، استطعت بمساعدة المرشدة الاجتماعية في المصح العثور على ملجأ مجاني "ميزون كلير" يتكوّن من غرف عدّة في حيّ سانت سيبريان في مدينة تولوز، وهي ملجأ حكوميّ مجانيّ يتكوّن من غرف فرديّة، وأخرى مشتركة توفّرها الحكومة للنساء المعنّفات أو اللاتي يعانينَ الصدمات النفسيّة جرّاء الحروب والفقر.

تمّ قبولي في هذا الملجأ لكوني أعاني كلّ ذلك العنف والصدمات النفسية والحرب والفقر. فرحت كثيراً لأنّني سأعيش أخيراً في غرفة وحدي لا يشاركني فيها أحد. سأمتلك مفتاحاً أحمي فيه مساحتي الخاصّة من دون أن يزعجني أحدٌ. ستكون مساحة جديدة هادئة آمنة أعيش فيها بعيداً عن الحرب واللجوء، بعيداً عن عيون أهالي حارة السود المتلصّصة. سأنام في مساحتي الخاصة دون أن يزعجني صوت أخواتي وصوت تلفاز أبي وصراخ أمّي على أخواتي. سأحمي نفسي في هذه المساحة

التي أمتلكها، ولن أضطرّ بذلك إلى تحمّل غرابة أيّ رجل.

بدأت تعلّم الفرنسيّة بمساعدة المرشدة الاجتماعية في الملجأ مدموازيل سيلفيا التي رافقتني منذ وصولي وساعدتني في إدارة شؤوني الشخصية والإدارية، وعرّفتني إلى نتالي، المحامية في "منظمة العفو الدولية" المختصة بأمور اللاجئين وطلبات الحماية. كانت دروس الفرنسية مملّة جدّاً لأنّها مخصّصة لنساء أميّات لا يعرفن القراءة ولا الكتابة. كنت أقضي وقت الحصة المجانية في الخربشة على الدفتر حيث أسجّل بعض الكلمات.

تشكّلت علاقتي بالنساء الأخريات ببطء، خاصّة بسبب عقدة في لساني تمنعُني من النطق. أتحدّث إليهنّ بالإشارات إن إضطررت إلى ذلك. أتذكّر جارتي في الغرفة، وأتذكّر عرجة في رجلها اليسرى بسبب إعاقة خلقية، وماجدالينا التنزانية السّوداء التي تتحدّث إليّ بلكنة إنكليزية سريعة لا أفهم منها شيئاً.

تعرّفت فيما بعد إلى نخلة الجزائرية التي تعيش في غرفة خاصّة بها أيضاً في الطابق العلويّ، وتعمل في تنظيف المنازل ولا تعود إلّا آخر النهار. أتذكّر تدويرة وجهها وجسدها البدين وشعرها الفحميّ الأسود. كانت تصطحبُني في أيّام رمضان لشراء بعض الخضار من آرنو بيرنارد أو من حيّ العرب حيث أرافقها لتشتري قطع اللحم الحلال. كانت نخلة بالنسبة إليّ أختاً كبيرة، تضحك وتحدّثني بلهجة مصريّة كي أستطيع فهم ما تقول. سرعان ما ساعدتني في الحصول على عمل غير شرعيّ خادمةً في مطعم

مغربيّ لكي أتحرّر قليلاً من صرامة الملجأ، واصطحبتني إلى جمعيّة إيماووس لشراء ملابس الشتاء بأسعار رخيصة.

# VI

أتّجه صباح كلّ يوم إثنين إلى النادي الثقافي "إم. جي. سي روجيه" القريب من الملجأ في حيّ سانت سيبريان بعد انتهائي من تحضير الفطور. تعرّفت إلى روزاريو الإسبانية، مديرة العلاقات العامّة في النادي. أتلعثم في حديثي إليها بالإسبانية والإنكليزية بعد أن التحقت بجلسات مكثفة مع طبيبة الملجأ لتساعدني على النطق من جديد. كانت تلك المرّة الأولى التي أشعر فيها أنّ هناك من يستطيع رؤية ما أمرّ به من مآسٍ وصعوبات كوني مهاجرة جديدة. ربّما يعود ذلك إلى كون روزاريو الابنة البكر لمهاجر إسباني وصل إلى المدينة هرباً من حكم فرانكو في إسبانيا. تعرّفت إلى خافير أبو روزاريو حين دعتني أوّل مرّة إلى شقتها القريبة من مكان عملها في حيّ سانت سبريان. رأيت الرجل، ولا أدري لمَ تذكّرت جدّي حين دقّقت في ملامحه. يروي لي خافير قصة لجوئه وهربه من إسبانيا إلى تولوز، المدينة القريبة من الحدود الإسبانية، وكيف قدم إليها مشياً على الأقدام مجتازاً جبال البيرانيه مع زوجته وأطفاله. يخبرني

عن عنصريّة الفرنسيين التي تعرّض لها ورفاقه الذين هربوا لإنقاذ حياتهم من قتل الديكتاتور. كنت أسمع قصص المعاناة نفسها التي تعرّض لها كلٌّ من جدّي البدوي والد أبي وجدّي الفلاح والد أمّي حين هاجرا من قراهما في الثمانية والأربعين ووصلاً إلى غّزة مشياً على الأقدام، وكذلك العنصرية التي واجهَها الاثنان من المدنيين أو سكان غزة الأصليين ومن اللاجئين الآخرين القادمين من حيفا ويافا والمدن الفلسطينية الأخرى. ربّما شاء القدر أن أظلّ حبيسة هذه التجارب مهما حاولت الهرب بعيداً، فها أنا الآن بمحض المصادفة أتحدّث إلى هذا العجوز الإسبانيّ عن معاناته مع فرانكو واضطراره إلى اللّجوء بعيداً عن وطنه.

## VII

بعد مرور سنة على إقامتي في ملجأ ميزون كلير والتحاقي بمعهد الرّسم التابع لمكان عمل روزاريو، تعرّفت إلى كاترين، الفتاة الفرنسيّة من أصول برتغالية، وهي تعمل منسّقة ثقافية للمعهد. توطّدت علاقتي بها مع مرور الأيّام، وبدأت عبرها التعرف إلى الصِّبية والفتيات من عمري في المجتمع الفرنسي، أو بالأحرى من هم بلا ماضٍ قاسٍ أو من تعرّضوا للصدمات النفسية في حياتهم. كانوا فتية وصبياناً في أوائل العشرين يقضون أوقاتهم في تشكيل فرق موسيقية للعزف في البارات والملاهي الليلية.

يتحدّثون معي بلكنة إنكليزية حادّة مختلطة بلغتهم الفرنسية فلا أفهم كلّ ما يقولون. يهتمّون بقصّتي، فأشعر بأنّني قادمة من كوكب المرّيخ إلى أرضهم. يبدون اهتماماً كبيراً لما يحدث في فلسطين، ويبدون تعاطفهم السياسيّ والفكريّ مع مأساة الشعب الفلسطينيّ، ما يضعني أمام موقف محرج بألّا أحدّثهم عن قسوة ما عشته مع الفلسطينيّين من سكان المخيّم في حارة السود. كنت أكتفي بهزّ

رأسي موافقة ومرحّبة بتعاطفهم، فما حدث لي شخصيّاً يجب ألّا يؤثّر في القضية الفلسطينية ومعاناة الشعب الفلسطيني بأكمله.

أخرست معاناتي، وسكتّ، وذهبت معهم لمشاهدة حفل موسيقيّ كبير ينظّمه اليساريون في كلّ سنة بمشاركة فرق فرنسية من أصول عربية خاصّة من المغرب العربيّ ليتحدثوا عن معاناة المهاجرين واللاجئين في فرنسا. أحاول الهرب دوماً من المأساة لأعيش حياة طبيعية عادية، لكنّ الفتية والصبيان من حولي يروننني عكس ذلك، فأضطرّ إلى أن أظلّ محاصرة بماضٍ تعيس لم أرغب فيه لنفسي، وحاضر يساري يتحدث عن معاناة المهاجرين هنا الآن. أجد نفسي باختصار أمام كلّ ما حاولت التنصّل منه لأحصل على سلام داخليّ لو لأيّام.

بدأ الحفل وبدأت فرقة "بير"، ومعناها زبدة، وهي كلمة قلبت حروفها الفرنسية من الكلمة الأصلية "عرب"، يغنون "الهيب هوب" ويخلطون كلمات الأغاني بين العربية المغربية والفرنسية، ويتحدّثون عن العنصرية التي يتعرّض لها العرب المغاربة في فرنسا، ورفض الحكومة الاعتراف بهم رغم أنّهم حاربوا في الصفوف الأولى للدفاع عنها خلال الحرب العالمية. تفسّر لي كاترين الكلمات وتترجمها إلى الإنكليزية بحماسة، فأبتسم لها، وأظلّ واقفة مكاني أصرخ في وجه أحد الشباب الذي صبّ البيرة بيده على معطف الفراء الذي اشتريته من "جمعية إيماووس الخيرية" بثلاثة يوروات. تتزاحم أجساد الشباب والفتيات، يحاولون تفادي

سيلان أكواب البيرة البلاستيكية على بعضهم بعضاً، ويقفزون جميعهم فجأةً في الهواء مردّدين وراء الفرقة: "والله والله، والله العظيم والله"، بلكنة جميلة. أبتعد عنهم كي لا يصبّ أحدهم البيرة على رأسي، وأحتمي تحت الطاولة الخشبية كلّما سمعت الفرقعات الناريّة في السّماء التي تذكّرني بقصف الصّواريخ في غزّة.

نعود جميعنا حوالى الثانية صباحاً، ونجتمع في شقة فابريس، أحد أصدقاء كاترين. يتناول الجميع الشيبس والمكسّرات، ويتابعون شرب الخمر وبيرة الهاينكن، أجلس على الكنبة وأغفو بسبب التعب. أستيقظ في صباح اليوم التالي لأعود إلى غرفتي الهادئة في الملجأ.

## VIII

تعرّفت إلى بيرنارد من خلال كاترين. كان شابّاً يكبرني بستّ سنوات، طويل القامة، بنيته رياضية، وشعره بنّيّ. يحدّثني في كلّ مرة عن قضايا سياسية واجتماعية قرأ عنها في مجلة **ماريان** اليسارية، وعن أهمية أن يتّفق الفلسطينيون مع الإسرائيليين فيما بينهم، ويصرّ على أنّ السّلام هو الحلّ. تأكّدت وقتذاك أنّني لن أهرب أبداً ممّا أمثله لهؤلاء الشباب، ومن الصورة التي يريدون حشري فيها: المهاجرة الفلسطينية التي أتت إلى هنا هرباً من الحرب، ويتفادى الجميع نقاشي في فكرة أنني إنسانة قبل كلّ شيء، وأنني كإنسانة يحقّ لي أيضاً أن أهرب لأسباب شخصيّة جدّاً وإن كانت تافهة، فهي بالنسبة إليّ في غاية الأهمّيّة.

حاولت مراراً توضيح فكرتي لبيرنارد، لكن دون فائدة. أعيد عليه مراراً أنني هربت إلى هنا لسبب بسيط هو أن أجد لنفسي مساحة من الأمتار المربّعة هادئة آمنة، أعيش فيها كإنسانة طبيعية بسيطة لا تمتلك قدرات بطوليّة خارقة. أردته أن يعرف أنّني لم

أهرب من حارة السود لأشكّل صورة المناضلة الفلسطينية التي تحمل فلسطين في حقيبتها أينما رحلت، بل هربت لكي أجد مساحة شخصيّة خاصّة بي أضع فيها سريراً صغيراً وطاولة. تمدّدت على سريري في غرفتي في الملجأ، وفكّرت في كتابة قصّة للأطفال تتحدث عن فتاة صغيرة كانت تحبس الديدان في مرطبان زجاجي وتثقب غطاءه بمسمار لكي تسمح للهواء بالدّخول، وتضع بعض أوراق الشجر لتغذيته، وتنتظر أيّاماً عدة لكي ترى تحوّل الدّودة إلى شرنقة، ثمّ إلى فراشة تتركها تحلّق بجناحيْها خارج المرطبان.

## XIV

تزوّجت ببيرنارد في حزيران ٢٠٠٣ وكان يوماً على غير عادته في فرنسا من أشدّ أيّام السنة حرارةً، مات خلالها ما يقارب ثلاثة آلاف مسن وحيدين في شققهم. كأنّ النحس يلاحقني في كلّ مرة أريد أن أفتح فيها صفحة جديدة في حياتي. لبست فستان العرس الأحمر الغامق "البوردو" لأنني لم أرغب في أن أكون تقليدية مثل الأخريات اللاتي يلبسن الأبيض. لبست القفازات البيج الطويلة التي تصل إلى الكوع، وقبّعة بيج مزيّنة بورود بلاستيكية تثبت من طرفها الأمامي طرحة خفيفة تخفي وجهي الحنطيّ. شعرت بالاختناق والحرّ وبرطوبة مزعجة تنهش جسدي تحت الفستان ذي الذّيل الطويل. ما إن انتهينا من جلسة التصوير، حتّى خلعت القبّعة وقفازات السيتان، ولبست فستاناً قطنيّاً لأتابع الرّقص بارتياح. لم أفكّر في أهلي للحظة. كنت أشعر بالفخر لأنّني قرّرت أن أتزوّج برجل اخترته لنفسي، ولم أنتظر موافقة فزاع. رقص الجميع فرحين يشربون النبيذ حتّى ساعات الفجر المتأخرة.

رقصت معهم حتّى الفجر رغم أنّني لم أكن أفهم ما يقولون بسبب عائق اللغة. سكرت معهم حتّى الثمالة لأنني غير معتادة الشرب، وقفزت في المسبح بفستاني القطنيّ لأتخلّص من شعوري بالاختناق. نمت على العشب الأخضر الذي يحيط بالمسبح في بيت عائلة بيرنارد بعد أن لففت نفسي بشال حريريّ كان ملقًى تحت الطاولة، وظلّ بيرنارد يغنّي ويرقص مع أصدقائه. تزوّجت لأنني قرّرت أن أرتاح قليلاً من الهرب والركض من بلد إلى آخر، ومن حالة نفسيّة إلى أخرى خاصّة بعد أن حطّمت الرّقم القياسيّ في التشتت والتروما أو "الصدمة" النفسية مقارنة بجدي وجدتي في حارة السود. تعبت من شعوري الدّائم بالصّراع لإثبات هويتي أمام الآخرين، والنقاشات التي تنتهي في غالبية الأوقات بأنني يجب أن أتفهّم معاناة الإسرائيلي الذي يعاني مثلي من الوضع، ويجب أن أكون غاندي وأتوقّف، أنا والآخرين من الفلسطينيّين، عن التفجيرات والمقاومة المسلّحة، وأبذل جهدي مثلهم في تحقيق السلام. كرّرت مراراً أنّني لم أهرب لأجد حلّاً لحقّ عودة جدي وجدتي إلى أراضيهما التي هُجّرا عنها، ولم أهرب لأحقّق السلام أو ليتعاطف معي الآخرون، بل هربت بحثاً فقط عن مساحة خاصّة بي مبنيّة من أمتار مربّعة أضع فيها سريراً وطاولة.

## X

بعد زواجي به في شهر حزيران، سافرنا، أنا وبرنارد، هرباً من حرارة تمّوز اللّاهبة، وتوجّهنا معاً لزيارة سلسلة من القرى الفرنسية الصغيرة تسمى غورج دي تارن أو "جوف التارن"، وهو نهر يقع في الجنوب الفرنسيّ. شعرت بسعادة لا تضاهى حين مشينا معاً في أزقّة القرى الضيّقة، تشكّلت شوارعها من حجارة صغيرة تصطفّ بتناغم الواحدة إلى جانب الأخرى. تغطّي الورود الشرفات، وقدَ دُهنت الأبواب بالألوان الزهرية والزرقاء وبالأحمر الداكن، نتسوّق معاً صباح يوم الأحد لنرى الفلاحين الذين يعرضون خضراواتهم ولحومهم للبيع، يمدّون إلينا بالزيتون لتذوّقه. شعرت أنني قريبة من هذه القرى أكثر من مدينة تولوز التي أعيش فيها مع بيرنارد. أعجبتني بعض الدور التي تغطي أرضيتها ألواح من الخشب البنيّ المرسوم. أحسست أنني أخيراً أنتمي إلى مكان هادئ أشعر فيه بالأمان والفرحة. توقّف الوقت في بيت من حجارة بيضاء يغطي جدرانه من الداخل زلط رمادي استأجرناه للاستراحة. لا أزال أذكر

الشراشف القطنيّة البيضاء الثقيلة التي تغطّي السرير، وباقة اللافندر البنفسجيّة التي عُلّقت في الخزانة. لا أنسى تلك الرّائحة ولا أنسى طعم المربّى المدهون على شرائح خبز الباغيت المحمّصة. كان للقهوة مذاق خاصّ شهيّ يختلف عن طعم القهوة السّادة التي كانت تحضّرها أمّي في تنكة الألمنيوم، وتبعدها مراراً عن النار كي لا تفور وتندلق على سطح الغاز المغطى بورق الألمنيوم فيتّسخ. نجلس في الصّباح حول طاولة خشبيّة صغيرة لنتناول الفطور، ثمّ نتابع جولتنا في زيارة شوارع القرية ومعالمها. أشعر بالرّضى في قرارة نفسي، وأفتخر بنفسي لأنني قرّرت الهرب في تلك الليلة لأصل إلى هنا. الآن أشعر بالسّعادة تغمر قلبي وروحي، أتنفّس الهواء النقيّ، وأمتّع نظري بألوان الخضار المختلفة. كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها حقولاً بهذه الخضرة، وكانت تلك المرّة الأولى التي أشعر فيها بأنّني أنتمي إلى مكانٍ هادئ بسيط تربطني به علاقة حميمة وشخصيّة.

## XI

كان يوماً هادئاً وعلى غير عادة ودّع فيه أهالي حارة السود آخر يوم من شهر حزيران في عام ٢٠٠١، حينما قرّرت فيه الهرب مع خوسيه. كانت السّاعة تشير إلى الرّابعة فجراً، توجّهت معه في تاكسي العبور الأصفر إلى الحدود المصرية، ألقيت نظرةً أخيرةً من زجاج التاكسي الخلفيّ على أختي أمل.

اختلطت في رأسي مشاعر من الحزن والفرحة. تارةً أبكي وتارةً أضحك. وددت أن أحتضن خوسيه، ولكن نظرات سائق التاكسي المتطفلة تمنعني من ذلك غير نظرات أم ريالة التي كنت متأكّدة من أنّها تراقبني من خلف ستارة دارها.

أخيراً وصلنا إلى حدود رفح حيث افترش المسافرون الآخرون الأرض، ينتظرون مثلنا البتّ في أمرهم، ويقصدون مصر للتجارة أو للعلاج أو لزيارة أهاليهم. اشتدّ توتّري حين أخبرتني امرأة أنّها تنتظر تصريح عبورها منذ خمسة عشر يوماً، ولهذا قرّرت أن تعود في كلّ يوم إلى هذه البقعة حاملةً معها كلّ لوازم الانتظار من أكل

وشرب. نظرت إلى خوسيه الذي لم يتركني لحظة، ولم يذهب من منطقة عبور الأجانب بل بقي معي ومع المسافرين الآخرين من حملة وثائق اللجوء المصرية. جلست بجانب المرأة أنتظر دورنا في العبور.

يقرص الذباب وجهي فأبعده عنّي. بقيت على هذه الحال حتّى تقدّم منّا ضابط أمن يرتدي بدلة السلطة الفلسطينيّة. وقفت فوراً، أنا وخوسيه، فأخذ يتحدّث معه متجاهلاً وجودي. طلب من خوسيه التقدم إلى خلف السياج حيث يقع مكتبه. رفض خوسيه التقدم من دوني، فوافق الضابط على اجتيازي السياج معه، ودخلنا معاً مكتباً كبيراً فيه أفراد آخرون من الشرطة الفلسطينيّة، وقد عُلّقت على جدار المكتب صورٌ لعرفات وأبي جهاد وأخرى للضّابط يشدّ بيده على يد عرفات. سألني الضّابط بنبرة استعلائيّة: "شو بتعملي معو؟!".

– خطيبي طالعين نتجوّز بإسبانيا.

"خطيبك؟!"، قالها باستهزاء.

– آه إسمو خوسيه عبد النور، وهو مسلم!

– عشنا وشفنا!

قالها وبدت على طرف شفتيه ابتسامة خبيثة أقلقت خوسيه، فتدخّل فوراً ليسأل عمّا يحدث، فتوقّف الضابط الفضوليّ فوراً عن التّحقيق معي، وأعاد إلى خوسيه جواز سفره ووثيقة سفري التي ألصقت عليها فيزا السّياحة الشينغن.

توجّهنا إلى تاكسي عبور آخر، واجتزنا نقطة التفتيش الفلسطينيّة إلى نقطة تفتيش الاحتلال، ووقفنا في طابور طويلٍ ننتظر أن ينادي باسمنا الجنديّ لإعادة وثائقنا الثبوتيّة. يخيّم الخوف والتوتّر على المكان وعلى وجوه المنتظرين وعلى وجهي. نحاول جميعنا التحكم بملامحنا حتّى لا يبدو عليها أيّ تذمّر أو ضيق قد يغضب جندي الاحتلال، فيعرقل سفرنا ويقضي على أحلامنا بالمغادرة. شعرت برغبةٍ شديدةٍ في التبوّل خاصّة بعد ساعات الانتظار الطويلة. حرّرني الجنديّ، فنادى باسمي لأستلم وثيقتي. ركضت نحوه، فأطلق النار على الأرض إلى جانب قدمي. تسمّرت في مكاني من الخوف، وشُلّت حركتي، وتسارعت نبضات قلبي. تقدّم جنديّ آخر مصوّباً بندقيته نحوي، وحدّثني بعربيّة مكسّرة: "ارجع ورا، ارجع ورا!".

حاولت جاهدة تحريك جسدي الثقيل الذي عدت به إلى مكاني في الطابور، ووقفت مجدّداً وأنا أبتلع ريقي، وأمسح عرقاً تصبّب من أعلى جبيني. ألقى الجنديّ وثيقتي أرضاً، وانتظرت ابتعاده لكي ألتقطها.

دخلت غرفة التفتيش حيث انفصلت عن خوسيه، وارتعبت من فكرة انفصالي عنه وإجباره على الرّحيل من دوني. تبدّد خوفي حين رأيته ينتظر وصولي إلى جانب الباص الذي سيقلّنا إلى الجانب المصريّ. صعد الجنديّ اليهوديّ الباص، فنظرت إلى وجه خوسيه، وابتسمت لأنّنا أخيراً سنرحل عن هذا المكان،

وسنرتاح بعد كلّ العذاب الجسديّ والنفسيّ الذي اجتازه معي في حارة السود.

توقف الزّمن من حولي لتنهار أحلامي كلّها حين أمرنا الجنديّ أن ننزل جميعنا لأنّ نقطة التفتيش المصريّة قد أغلقت أبوابها، وستفتح صباح اليوم التالي. شعرت بالغضب يتكوّر ويصل إلى أنفي ليخنقني، وانفجرت في وجه الجنديّ حين اقترب من مقعدي: "أنا مش نازلة ولا متحركة من هون، وطخني إذا بدك!".

حاول خوسيه تهدئتي عبر إقناعي بأنّ غضبي لن يغيّر شيئاً بل سيزيد عرقلة اجتيازنا الحدود. فحملني على كتفه، وصرت أركل بطنه بقدمي لأفلت منه، ما جعله يُحكم بذراعيْه على قدمي ليعيق حركتي، ويبتعد بي عن منطقة الحدود وأنا أنظر إلى الجندي الذي يزيح بخوذته الكبيرة عن عينيه.

عدنا إلى منطقة الحدود الفلسطينيّة وأدرت ظهري إلى خوسيه. رفضت النّظر إليه أو الحديث معه. وعدني بأنّنا سننام هنا على التراب لكي نكون من أوائل المسافرين في تاكسي العبور الصّباحي. وفعلاً، كما وعدني، استطعنا اجتياز الحدود المصرية هذه المرّة، وركبنا التاكسي متوجّهيْن إلى مطار القاهرة الدّولي. سررتُ حين سمعت لهجة السّائق المصريّة، وحضنت خوسيه بقوّة، فابتسم في وجهي وضمّني إليه. غفوت على كتفه وأنا أستمع لأنغام عبد الحليم حافظ يردّد: "لكن سماؤك ممطرة وطريقك مسدود مسدود!".

# الجزء الثاني

## عد

# I

عند سؤالي لها عن تفاصيل لحظة ولادتي تجيبني أمّي دائماً: "آآآخ، إيش بدك أحكيلك؟ بس نولدتي غرّقنا المطر، وطفحت المجاري في الحارة!".

وتتوقّف عن الكلام مستعيدةً هلع تلك اللحظات.

لا أنجح في جرّها إلى الكلام والاستمرار في استعادة ذلك اليوم، ولولا الجارات المفعمات بالثرثرة، ما عرفت قصّة ولادتي بتفاصيل مختلفة، وأحياناً متضاربة.

لكنّ جميع الرّوايات باختلاف تفاصيلها أجمعت على أنّني ولدت ناجية من الغرق في حيّ الشجاعيّة في قطاع غزّة، في ليلة نحس.

***

استأجر أبي غرفةً لدى السّكاكيني بعدما هاجر كلّ أولاده إلى أميركا.

يومذاك اندسّ أهالي الحيّ في جحورهم في ساعة متأخّرة من الليل، ولم يبقَ في الشارع الطيني سوى حمار "أبو إبراهيم" مربوطاً على عتبة داره بجانب شبّاك غرفتنا الصغيرة.

دخلت الداية أم رشيد برفقة أبي تلهث راكضةً. وفيما همّت بانتشالي وإنقاذ أمّي من آلامها، ارتفعت أصوات أهالي الحارة المتذمّرين من طفح المجاري في جور حمّاماتهم أيضاً، وتجمّعوا حول دار "أبو إبراهيم" ليساعدهم في تطهيرها حاملين في أيديهم الفوانيس الصّغيرة لتنير طريقهم.

كان أبو إبراهيم يبيع الكلوريكس ومياه النار، وهو حمض النيترك الذي يستخدمه أهالي الحارة في تطهير جور حمّاماتهم بعد قضاء حاجاتهم. ربط أبو إبراهيم عربته الخشبيّة على ظهر حماره، وبدأ اللف على دورهم واحداً تلو الآخر لتسليك المجاري وتطهيرها.

في الوقت نفسه، أسرعت الداية أم رشيد لإنقاذي بعد أن شاهدت التفاف الحبل السرّي حول رقبتي، والزرقة تعلو وجهي أكاد أختنق من نقص الأكسجين. أنقذتني بضربة من كفّها على لحمي الطرّي لتتحوّل زرقته إلى حمرة، وأنا أصرخ ليصمت الحمار الذي لم يتوقف عن النهيق طوال ولادتي.

دفع أبي الباب بيديه عند سماعه صراخي: "ها بشري".

– مبروك الله رزقك بعروس رابعة، تتربّى في عزك!

عبس أبي واسودّ لون وجهه، وخرج من الغرفة يضرب كفّاً

بأخرى متعجّباً من النحس الذي أصابه بزواجه بامرأة لا تنجب سوى البنات.

في تلك الليلة، كانت أمّي مستعدّة للتّكلّم أكثر على لحظة ولادتي، ولكنّ جدّي حرب بن أبي ذياب ضحك ممّا قالته وقاطعها: "والله النحس ما أجانا غير من يوم ما أخذناكي وناسبناكي".

يخبرنا جدّي تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم الّذي تقدّم فيه لخطبة أمّي الفلاحة القرويّة هند لابنه الوحيد القادم من صحراء النقب، ويردّد علينا الحكاية أكثر من ترديده حكاية تهجيره من أراضيه وفقدان جدّتي القطاوية هدباء عقلها بعد تهجيرها في طريقها من النقب إلى غزّة مشياً على الأقدام.

يضع جدّي إبريق الشاي النحاسيّ على الكانون المشتعل في الصالون حيث ينام مع جدتي، ويتركه ليغلي حتّى يزداد سواده ومرارته. نسمع طقطقة أعواد الخشب وغطاء الإبريق الذي يزيحه ويصبّه في كأس صغيرة، ثم يعيده إلى الإبريق ويكرّر العملية ويتركه حتّى يستقرّ الخثر في قاع الكوب الزجاجيّ ويشربه. ويستمرّ في قصّ حكايته عن تلك اللحظة التي قرّر فيها الذهاب إلى دار جدي "أبو شنب" لطلب يد إحدى بناته.

وجد جدّي صلاح أبو شنب في زواج أمّي – ولو من بدويّ سبعاوي (من بئر السبع) – الحلّ الأمثل كي يتخلّص من بطن آخر جائع يذكّره بفقره وبنحسه، ومن جهته، أصرّ جدّي حرب بن ذياب على تزويج أبي في أقصر وقت ممكنٍ حتى لو من فلاحة قروية،

خاصّة بعد أن اتّهم بتلصّصه على نساء الحارة أثناء استحمامهنّ.

يشتم جدي اليوم الذي دلّه فيه البلبيسي، صاحب الدكان، على الطريق إلى دار "أبو شنب" بعد أن كان قد تاه في مشيته: "بتطلع دغري ع الطريق الرملي من على يمين الدكان، ومن هناك بتشوف باصات الحدود اللي مكتوب عليها أبو علبة، بتضلك دغري حوالي ٢٠٠ متر وأوّل ما تشم ريحة ورود الجوري اللي طالعة من داره بتلحقها وبتوصل ع عتبة داره!".

يتوقّف جدّي للحظات ليرتشف الشاي، ويرفع سبابته وعينيْه إلى سقف الزينكو.

يضع جدّي كوب الشّاي في صينية الألمنيوم. نحيطه، نحن البنات الأربع، بصمتنا، نحدّق إلى وجهه الأسمر النحيل وعينيه العسليّتيْن الواسعتيْن وحنجرته البارزة من شدة ضعفه. ننصت إلى تفاصيل الحكاية كلّها، ونضحك من طريقة حديثه عن أمّي وأهلها وسخريته منهم.

طرق جدّي على البوابة الحديدية الكبيرة بيديْه، وانتظر أن يتقدّم أهل أمّي لاستقباله عشر دقائق، وأعاد الطّرق على البوّابة لكن بقوّة أكبر هذه المرة لعلّ "أبو شنب" يسمعه. وسرعان ما سمع خطواته الثقيلة تقترب من خلف الباب، وشاهد عينيه اللّتين تحدّقان إليه من خلف السياج الحديدية لتتفحّص وجه الطارق، مزيحاً بيديه أوراق الشجر الأخضر التي تغطي فتحات البوّابة وتمنع الزائرين من التلصص. عندها سأل "أبو شنب" الصّوت: "مين إنت؟ خير؟".

–خير، خير إن شاء الله، أنا جاركو حرب بن ذياب، جاييكو بالخير.

أدخل "أبو شنب" المفاتيح في الأقفال، وأخذ يجرّها يميناً وشمالاً ساحباً الباب بقوّة إلى جهته. تفحّص "أبو شنب" الرجل الغريب الواقف على عتبة بابه، ودقّق في جسده النحيل، وجلّابيته الرمادية، وعقاله الأسود الذي يغطي حطته البيضاء: "تفضل، أهلاً وسهلاً".

– يزيد فضلك.

اعتاد "أبو شنب" استقبال ضيوفه في مجلس داره الخارجيّ ليحلّ مشكلاتهم ويعدل في قضاياهم. يطلّ المجلس على مزرعته الصّغيرة ويغطّي سقفه سعف النخيل المجفّف وورود الياسمين الدمشقيّة المتسلقة على ألواحه الخشبية. أشار إليه بالجلوس إلى جانبه على كرسيّ من الخيزران المصنوع يدويّاً. وعرض جدّي أبو ذياب طلبه قاطعاً الطريق أمام كلّ الشكوك التي بدت على وجه "أبو شنب" وحيرته من سبب تلك الزيارة: "أنا يا مختارنا ومن دون لت وعجن جاييك طالب القرب والنسب".

ابتهجت أسارير جدّي "أبو شنب" لكنّه سرعان ما حاول جاهداً ضبط انشراح ملامحه الصّارمة، فعاد إلى شدّ تجاعيده وعقد حاجبيْه: "إنتو من وين؟!".

– إحنا من بني عطية من قبيلة التياهة في السبع.

– أهلاً وسهلاً، إنتو الخير والبركة، إن شاء الله خير!

فكّر "أبو شنب" فوراً في أنّ التخلّص من إحدى بناته سيجلب الحظ لأخواتها الأخريات، فيلقي بحملها وثقل مسؤوليّتها على رجل غيره ليستر عليها.

وفكّر أبو ذياب أنّ أصل المرأة الفلاح لن يثير غضب رجال قبيلة التياهة، خاصّة بعدما تزوّج بقطاوية أصلها يعود إلى بدو سيناء من المصريّين. ودار في رأسه أنّ الرّجل لا يُعاب ولا يُحاسب لا من قبيلته ولا من أهله، والزّواج بفلاحةٍ خير من استمرار الشكاوى بسبب سمعة ابنه الوحيد.

وقع اختيار "أبو شنب" على أمّي هند لأنّها رسبت ولم تكمل الابتدائيّة، فبثّ الذّعر في قلبها، وخافت أن يكون مصيرها كأختها الكبرى زهانة، فقد ذاع صيت عنوستها، ما اضطرّ جدي إلى تزويجها من هبيلة الحارة.

خافت أمّي أن تصبح هي الأخرى مضحكة الحارة كأختها الكبرى، ويلقي الصّبيان على زوجها بالحجارة.

أخافها أيضاً ما سمعته عن جدّتي آمنة بأنّ رجال البدو لا يؤتمن لهم بسبب عيونهم الزائغة وحبّهم للنّساء والبنين. ورغم كلّ مخاوفها ووساوسها وصغر سنّها، فإن صرامة أبيها لم تترك لها مجالاً غير القبول.

لم ترَ أمّي وجه أبي فزاع إلّا ليلة زفافها، بعد أن دخلت الغرفة الصغيرة التي استأجرها في منزل السّكاكيني. في هذه الغرفة، عاش

العريسان، وقضيا سنوات زواجهما الأولى. وحين وصلت أخواتي الكبيرات ووصلت، ضاقت بنا الغرفة، فقرّر أبي الانتقال إلى العيش في دار جدّي "أبو ذياب" في حارة السود.

كانت الدّار الجديدة تتكوّن من صالةٍ لاستقبال الضيوف وغرفة أسدل في منتصفها ستار عريض معلّقٍ على حبل غسيلٍ لفصلها لتصبح غرفتين، ويمتدّ في مدخل الدار ممرٌّ صغيرٌ ضيّقٌ يقع في نهايته المطبخ، وعلى اليمين حمام لقضاء الحاجة وحمام آخر للاستحمام. ويغطّي سقف الدّار الزينكو (سقف من التوتياء) الذي يزيد من حرارته صيفاً، ويسيل منه المطر على رؤوسنا شتاءً، فيما تتكوّن أرضيّة الدّار من إسمنت تغطّيه أمّي بحصيرة من القشّ تفرشها عند استقبال الضّيوف.

تشطف أمّي الإسمنت يوميّاً بالماء البارد لتخفّف حرارته.

شيّد جدّي داره بعد أن انتقل بجدتّي هدباء وأبي من مخيّم النّصيرات في جنوب قطاع مدينة غزّة حيث كان يعيش قادماً إلى حارة السود وسط المدينة حيث وجد عمل حارسٍ ليليٍّ لمدرسة حكوميّة.

كانت الدّور في حارة السود مزدحمة متلاصقة، حُشر فيها اللاجئون كما تحشر أسماك السّردين وتتلاصق في العلب النحاسيّة. اعتقد سكان المخيّم ومن بينهم أمّي أنّ لليهود علاقة بالأمر، فتلاصق الدّور وسماع كلّ صغيرة وكبيرة يسهّلان التجسّس والقبض على الفدائيين.

يفصل بين دور المدنيّين من سكّان غزة ودور اللاجئين شارع الجلاء الرئيسيّ، وفي حارة السود، التي تقع في آخر شارع الجلاء، يفصل بين دور اللاجئين والعبيد شارع رمليّ لا يسمح لهم فيه بالاقتراب من دور اللاجئين. كبرنا، أنا وأخواتي كفاح وأمل وصابرين، في دار جدّي على أصوات شجارات الجيران ومشكلات الكنة مع حماتها والزوج مع زوجته. تتربّص عيون الجارات اللاتي يجلسن على عتبات دورهنّ بالجميع، ولا يفرّقهن سوى وصول دورية جيب جيش اليهود الأخضر، فيما تحيط بدار جدّي كلّ من دار "أبو ريالة" و"أبو كرش" ودار "أبو أيمن" المهجورة.

غطّت أمّي باب الدّار النحاسيّ ببطّانية كي نفتحه فتسهّل حركتنا دون أن يتلصّص علينا الجيران.

وسرعان ما وجد أبي عملاً ميكانيكيّاً في كراج للسيّارات عند اليهود، وأصبح كرجال كثر آخرين من سكان الحارة يذهبون إلى العمل عند اليهود طوال أيّام الأسبوع، ولا يعودون إلا في العطل الأسبوعية وخلال العطل اليهودية.

حصل أبي على عمله بعد التحاقه بمعهد تدريبيّ تابع لـ"وكالة الغوث للّاجئين"، فغادر أمّي، وترك أمور الدار وأمورنا، نحن الصّغيرات الأربع، لتعتني بشؤوننا وشؤون جدّتي المجنونة هدباء، خاصّة في غياب جدي "أبو ذياب" بسبب عمله الليلي في حراسة المدرسة.

تتركنا أمّي في الصباح تحت رقابة أختي الكبيرة كفاح، وتحمل سلّتها البلاستيكية الحمراء على رأسها، وتتوجّه لشراء الخضار من سوق البسطات في حي الشجاعيّة. كنت أستغلّ وقت ذهابها وأتنصّل من أختي لأهرب للقاء أصحابي الصبيان. أكذب على كفاح وأحكي لها أنّني سأذهب لألعب خلف الدار وأجمع أعشاب الخبيزة لتطهوها لنا أمّي، وكانت تصدّقني بطيبة نيّة. لكنني اعتدت لقاء الصبيان خفيةً في باحة دار "أبو أيمن" المهجورة، وكي لا تراني أم ريالة، كنت أقفز من أعلى جدار "أبو أيمن" لأرافقهم.

كنّا نلتقي في صبيحة أيّام الجمعة بعد الصلاة، وحين يخلد المصلّون إلى النّوم في دورهم، وبعد انتهائنا من أداء واجباتنا المدرسيّة. يدخّن الصبيان السجائر خفيةً، وكان لقبي فيما بينهم نص نصيص، وهو بطل حكاياتنا التي تحكيها لنا أمهّاتنا في الحارة عن شقاوته وإفلاته في كلّ مرة من حيل الغولة التي كانت تخطّط لأكله، وذلك بعد أن أثبت للصبيان شجاعتي وهربي من الدار دون علم أمّي، وتخلّصي من المشكلات في كلّ مرة تقبض فيها أمّي عليّ متلبّسة.

## II

ظلّ رامي أبو كرش الذي يعمل لدى صاحب أبي المسيحي سعد الصريف في مصنع الخياطة يسخر منّي ومن طريقة لبسي. وظلّت أمّي ترفض أن ألبس السّراويل والجينز كالصّبيان، وكلّما وسّخت فساتيني القطنية، ومزّقت كولوناتي الصوفية، كانت تعاندني بأن تغسلها، وتجبرُني على لبسها مبلّلة وممزّقة رغم البرد القارس.

كنت أختنق حين أرتدي فساتينها القطنية ذات الكاروهات الزرقاء والحمراء، الّتي تصل أزرارها إلى رقبتي، فلا أستطيع فكّها إلّا بمساعدة إحدى أخواتي. تتباهى أمّي بجمال فساتيننا كوننا الوحيدات اللاتي نرتديها حين يأتينا بها أبي من سوق البراغيث، "سوق البالة"، من عند اليهود.

تقضي أمّي وقتها في مقاهرة النساء الأخريات في الحارة لنظافتها وترتيبها ورائحة مسحوق الغسيل التايد الأحمر على الملابس التي تنشرها على الحبل المربوط على نوافذ الدّار. ولهذا، رفضت أمّي أيضاً طلبي في أن أقصّ شعري كالأولاد، وأن أقود درّاجة هوائية

كأولاد الجيران الذين في مثل سنّي. وكانت بدلاً من قصّه تشدّه بإستيكة تنتهي أطرافها على شكل بونبونة حلويات بلاستيكية تكاد تخلع رأسي عن جسدي كي تمنع انفلات أيّ شعرة، وتنتهي بتثبيته على هيئة ذيل الحصان.

تحكم أمّي في أيّام الأعياد والمناسبات على رؤوسنا الصغيرة تجديلة فرنسية رأتها يوماً على رأس جنديّة يهوديّة من جنود الاحتلال مرّت من أمام منزلنا في الحارة. أمّا في أيّام المدرسة، حين ينتشر القمل في رؤوسنا، فإنّ مرحلة التّعذيب تكون في أقصى درجاتها من شدّ الشّعر ونتشه. وبعد رشّ رؤوسنا بالكاز وتحمّل رائحته الكريهة لمدة ليلتين والإقامة الجبريّة في المنزل، كانت أمّي تمرّر بمشط عظمي ذي أسنان ضيّقة ومؤلمة من أعلى الرأس إلى أسفلها مكرّرة العملية مرّات عدّة حتّى تتأكّد من نظافتنا التّامّة.

كانت علاقتي برامي غريبة الأطوار ومتقلّبة وفق مزاجه. أراه يتقرّب منّي حيناً ويعيرني درّاجته الكبيرة لأتدرّب على ركوبها خلسة، وفي مرّات أخرى، ينظر إليّ ويتحدّث إلى الصّبيان الآخرين متجاهلاً وجودي بل يطلب منهم طردي من الشلة لأنني صبيّة.

كان مراهقاً يكبرني بخمس سنوات، طويل القامة، حسن الوجه، تزيّن خدّه الأيمن شامة سوداء كبيرة، وترتسم على وجهه نكزات كلّما تبسّم. يمتلك عينيْن عسليّتين حالمتيْن تناسبان بشرته الحنطيّة، ويزيّن شعره الأسود بالجلّ حين يكون على موعد للقائنا في بيارة الصبار. يتباهى أبو كرش أمامي وأمام باقي أفراد الشلة

بقميصه الأزرق القطنيّ، فيترك أزراره مفتوحة من عند رقبته فيكشف قليلاً عن صدره. يغيظنا بأنه يعمل في مصنع الخياطة لدى سعد الصّريف ويحيك سراويل الجينز بنفسه، فلا يتسنّى لأيّ أحد شراؤها لغلاء سعرها لأنّها مخصّصة للبيع في محلات اليهود فقط. كان رامي عنيداً، وفي المشكلات لا يعرف أنصاف الحلول، لا يكترث لضرب الجنود له في كلّ مرة يذهب فيها لرميهم بالحجارة. يضع لثاماً على وجهه ويشعل "عجال السيّارات" السّوداء مع صبية من سنّه لإقامة الحواجز خلال المواجهات مع الجنود. نرى عينيْه تلمعان فرحاً حين يقصّ علينا نجاحه في رمي زجاجة المولوتوف الحارقة على جيب اليهود الأخضر. ورغم شجاعته أمام الجنود اليهود، فإنّ خوفه الكبير كان من نضال أبو ريالة، جارنا في الحارة. تشتعل الشرارة في عينيه كلّما ذكر أيٌّ منّا اسمه بحضوره.

يسكن نضال أبو ريالة في حارة السود أمام دارنا. يعمل في لمّ القمامة من أمام أبواب دور الحارة مع أبيه. كنت أرتعب لمجرّد رؤيته، أشيح بنظري فوراً كي أتفاداه. كان وجه نضال محروقاً أسفل ذقنه من جهة اليمين، وكان في عينيْه بياض عيون، كعيون السود في الحارة تلمع في العتمة حين يقطع اليهود الكهرباء. نشكّ جميعنا في أنّه من تسبّب في حريق مصنع الخياطة في معسكر الشاطئ لينتقم من رامي. كنت أراه يجلس متسكّعاً على كرسيّ الخيزران، يشرب الشاي ويحمل شفرة الحلاقة بين أسنانه يهدّد بها صبية الحارة بتشويه وجوههم إن اقتربوا منه. كان يراقبني في

كلّ مرة أهرب فيها من باب المنزل للقاء رامي أبو كرش وأخيه عبد الله وأفراد الشلة الآخرين في بيارة الصبار.

في صباح يوم الجمعة، حين هممت بلقاء الصبية، فاجأني باقترابه منّي. تسمّرت في مكاني من الخوف، وتمنّيت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني أو يخرج أحد المصلّين من الجامع فيراني. نظرت باتّجاه الأرض، وتنفّست بصعوبة، وصار صدري يعلو ويهبط من شدة التوتر. ألقى نضال بالطّين على فستاني: "ارفعي راسك من إيش خايفة؟".

لبّيت طلبه على مضض خوفاً من أن يشوّه وجهي بشفرته إن لم أفعل. اقترب منّي أكثر، ورفع في وجهي جرذاً ميتاً أمسكه من ذيله. تبوّلت في سروالي من الخوف، فضحك منّي، وهربت فوراً داخل الدار. لم أرتح للاقتراب منه يوماً، وكنت أخاف حين ترسلني أمّي في وقت متأخر لشراء أشيائها. ما كان يريحني هو وجود عبد الله أبو كرش، أخي رامي، بقربي دائماً، يراقبني من بعيدٍ ويصفّر لي من أعلى الشرفة، فأعلم أنّني في أمان.

كانت أم رامي وعبد الله أبو كرش صديقة أمّي خاصّة بعد أن هجرها زوجها وتزوّج بمقدسيّة وحصل على هوية، وظلّ يعيش حياته على حدود الخط الأخضر. تواسي الاثنتان بعضهما بعضاً، وتستعينان ببعضهما بعضاً في وقت الأزمات. تشكّلت بيني وبين عبد الله علاقة حبّ صامت. ظننت أنّه أبله لا يرى حبّي واهتمامي به. أفرح حين ترسلني أمّي لأستعير مكنستهم الخشبية أو صابون

تايد الغسيل، فأستغلّ الفرصة لأراه، ونحدّد موعد لقائنا القادم في بيارة الصبار. علمت فيما بعد أنّه سيرافقني إلى المدرسة بسبب خوف أمّي من الجنود اليهود وازدياد تناقل القصص عن خطف البنات واغتصابهنّ وقتلهنّ.

كنت أهرب حين يعود أبي من عمله، فتلتهي أمّي به، وألحق بعبد الله الذي كان ينتظرني عند مفترق الحارة.

يومذاك هربت من أمّي ومن نضال، لكنّني لم أفلت من البلبيسي صاحب الدكان.

ناداني من على كرسيّه الصغير وهو يعدل ميشة شعره الوحيدة التي تغطي صلعاً وسط رأسه، والتي تتحرّك باتجاه الرّيح. جالساً خلف لوح خشبيّ طويل اتّخذه مكتباً صغيراً له يفتحه من المنتصف ليراقب دخولنا وخروجنا من دكانه شاكّاً في سرقتنا بضاعته، سألني: "لوين يا عمو؟".

- جاية أشتري أيسكريم أبو البسكوتة.

- رجع أبوكي؟

- آه قبل شوي ونايم من التعب.

- وأمك كيفها منيحة؟

- آه منيحة بتسلم عليك.

لبس البلبيسي نظاراته، وبلّل إصبعه، وبحث عن صفحة "بنات هند" ليسجّل طلبي في الحساب. شكرته، وخرجت: "باي يا عمو، سلمي عا أبوكي، وتلعبيش مع الولاد، رامي فايع ها اليومين".

ابتعدت عن أنظاره، ووصلت عند الشارع الرّملي عند مدخل الحارة، فوجدت عبد الله بانتظاري. ركضنا معاً في اتّجاه البيارة. وجدنا رامي وباقي الأولاد، ولعبنا حتّى مغيب الشمس، وعدنا، وودّعني عبد الله عند مفترق الحارة. استقبلتني أمّي بعكاز جدي المعلّق في أعلى الباب: "وين بقيتي لنصاص الليالي آه؟ أي والله بس يصحى أبوكي لينحرك! خشي انقلعي اتحممي وغيري أواعيكي يا وسخة!".

دخلت الحمام أستمع لآذان المغرب من نافذة الحمام الصغيرة وصوت البابور النحاسي يرتفع فيغلي الماء، تدخل أمّي لتعدله وتغلق النافذة فأكاد أختنق من رائحة الكاز.

تخلط الماء المغليّ بماء الحنفية البارد، وتدعك جلد ظهري بالليفة بعد أن تحكّها جيداً بصابون الشكعة النابلسية. يملأ الدّفء الحمام الصغير، فتنادي أخواتي الأخريات، وتغسل شعورنا الواحدة تلو الأخرى لتقتصد في الماء الساخن. تنتهي لحظة استحمامنا، فنلبس فساتين نومنا القطنية الطويلة، ونسرع لنملأ الفراش الأرضيّ الذي يغطّي حفراً رملية يسبّبها ماء الشطف، تحتكّ أقدامنا ببعضها بعضاً لنحصل على الدّفء.

تغطّينا أمّي بحرام ثقيل ملأته بثيابنا الصيفية فيكتم على أنفاسنا لثقله، وننام من حولها ونتشاجر كي نلتصق بها. تطفئ الضوء، وتروي لنا حكاية جبينة التي غارت منها فتيات الحارة لبياضها، فأخذنها إلى بيارة، وتركنها معلقة على غصن شجرة الجمّيزة

ليأكلها الغول، ولكنها نجحت في العودة إلى منزلها بعد أن ساعدها الأمير، وأعادها إلى ديارها على فرسه.

نامت أخواتي، وظللت مستيقظة أتقلّب في فراشي محاولة أن أجد موضعاً مريحاً للنوم، أفكّر في وجه الغول وأتخيّل أنّ "نضال" هو في الحقيقة ابن الغول يتحوّل على هيئته ليبتلعني. أغطّي وجهي بالحرام الثقيل، وأسمع ماكينة خياطة أمّي تدور، فيطمئنّ قلبي وأنام.

## III

استيقظت يومذاك وأختي أمل تهزّني بعنف: "قومي أجى عبد الله وبدو إياكي شكلو فيه إيشي صارلو!".

فركت عينيّ بيدي، وتوجّهت لأفتح الباب.

– شو جايبك، شو فيه؟ هلقيت أبوي بضربني إذا صحي وشافك هون، روح إنقلع!

– ولك إلبسي وتعالي ضروري رامي كسر الدنيا ودبحو بعض هو ونضال في البيارة.

ذعرت لما سمعت خاصّة أنني كنت أعلم مدى شراسة نضال وقذارته وكرهه الدفين لرامي.

– طيب إستنى بلاقيلي حجة وبشرد.

غسلت وجهي بالماء البارد المكوّم في طشت بلاستيكيّ أصفر في حوض المطبخ.

فككت "مغيطة" الاستيكة التي ربطت بها أمّي سيقان النعناع، وشددت بها شعري المنفلت، وتوجّهت إلى الصّالون الصّغير،

وفتحت الباب الخشبيّ بشدة، فوجدت جثة أبي الممدّدة على الفراش الأرضي غارقاً في نومه.

فوجأت بشحّاطة أمّي على مؤخرتي: "ولك يا سوسة البلاء، شو بتعملي هون، أبوكي بدو يرتاح، إطلعي إنقلعي إلعبي برا!".

اغتنمت الفرصة، وركضت مع عبد الله الذي انتظرني أمام عتبة الباب متوجّهين إلى البيارة. حين وصلنا، رأيت الشرّ والغضب ينضبان من وجه رامي، يركل "نضال" الممدّد على الأرض في بطنه، ويدوس على وجهه بكلّ ما أوتي من قوّة، ويبصق عليه: "لسانك بقصو يا نذل، أختك المنيوكة، يا العايش عا الزبايل إنت وأهلك!".

حاولت مع عبد الله تهدئة غضب رامي، فنظر إليّ بعينيْن حمراويْن تكادان تنفجران من الغضب: "إنتي إنقلعي من هون مين جابك؟!".

تسمّرت في مكاني لا أتحرّك خوفاً منه، ما سمح لنضال أن يفلت من قبضة رامي، وأخذ يعرج هارباً مختفّياً بين أشواك الصبار، والدم يقطر من رأسه ويغطّي أطراف الصبار الخضراء. التقط رامي ثمار الصبار غير آبه بشوكها، وصار يرميها عليه.

وجّه بأنظاره إلى عبد الله من جديد، وصرخ في وجهه: "رجعها ع دارها مش طايق أشوف شكلها!".

وخرج غاضباً من باب البيارة، وركب درّاجته واختفى.

أمسك عبد الله بيدي، وأخذ يمسح بدموعي عن خدّي:

"تزعليش منو، أبصر مالو ها اليومين معصب وبقاتل في ذباب وجهه!".

رافقني إلى عتبة الدار، وودّعني. خفت ممّا رأيت ومن الغضب الذي سيطر على وجه رامي.

فتحت باب الصالون بحذر. رأيت جثة أبي هامدة، لا يزال نائماً محدثاً أصواتاً غريبة خلال تنفّسه بين حين وآخر. رائحة الطعام تنتشر في الدار. اقتربت لأنصت إلى همسٍ يدور بين أمّي وأختي الكبيرة كفاح في المطبخ: "زي ما بتسمعي لقوها حبلى، والله لأقص رجلها نص نصيص إذا شفتها بتلعب معهم، ناقصنا يشوهو سمعتنا ولاد الحرام!".

## IV

رحل أبي عند الثّالثة فجراً.

لكنّني استيقظت على رائحة الشاي بالميرامية، وتحديداً في السّادسة صباحاً، موعد الفطور.

أحيط وأخواتي بسفرة دائريّة وخشبية صغيرة وضعت عليها أمّي إبريق الشاي وكسرات من الخبز اليابس نغمسه في صحن الفول السّاخن. يغالبني النعاس، فتوقظني لسعات البرد. غسلنا وجوهنا الواحدة تلو الأخرى، نتشاجر على دورنا في دخول الحمّام. لبسنا مراويلنا الزرقاء الصغيرة والكولونات الصوفية البيضاء. صفّفت لنا أمّي شعورنا، وربطتها كعادتها بمغيطة وبشريط من السيتان الأبيض تلفّه على هيئة فيونكة لتخفي فيه المغيطة.

حملت حقيبتي الثقيلة على ظهري، وأمسكت بيدي ساندويشة الصّعتر والزيت، وذهبت للقاء عبد الله عند مفترق الحارة لنمشي معاً إلى المدرسة. يلحق بي صوت أمّي من بعيدٍ: "بتنتبهي عا حكي المعلمة وبتركزي منيح وإن شاء الله تعمليلي مشكلات!".

وصلنا إلى المدرسة، وعبرنا البوّابة الزّرقاء الرئيسيّة حيث كانت أعلام "الأونروا" ترفرف عالياً. وقفنا في الطوابير المنتظمة والمتأهّبة لسماع دقّة الجرس لبدء النشاط الصباحيّ. استعدّت المتفوّقات من البنات لتقديم النشرة الصباحيّة في مقدّمة الطابور بعد أن رفعن العلم الفلسطينيّ. رنّ الجرس، وأنشدت الحناجر المردّدة النشيد الوطنيّ: "بلادي، يا أرضي يا أرض الجدود، فدائي يا شعبي يا شعب الخلود...".

لاحقني لقب نص نصيص في المدرسة بسبب سمعتي في التنصّل من الشجارات بمهارة، واستطعت خلال الفصل الدراسي الأوّل تشكيل شلة صغيرة أقودها وعبد الله.

أجمع أفراد الشلّة من الفتيات والصبيان لكي أحدّثهم عن مغامراتي في بيارة الصبار، فينصتون إليّ باهتمام. أعلّمهم كيفيّة استخدام الشديدة أو المقلاع الصغير الذي يتكوّن من خشبتين متوازيتين تربط أطرافهما بإيلاستيك مقوّى لنستخدمه في رمي الحجارة لمسافات بعيدة إمّا على اليهود خلال المظاهرات وإمّا في صيد العصافير في البيارة خلال الهدوء.

أقضي وقتي في الحديث مع الفتيات عن مهارتي في ركوب دراجة هوائيّة كبيرة مقارنة بجسدي، فأرى الغيرة على وجوههنّ. أمسك بالعدسة المكبّرة، وأسلّطها في اتّجاه الشمس إن أشرقت لأحرق بحرارتها الأوراق من أمامهنّ. ينظر إليّ الجميع منبهراً إلّا منى الأسطل ابنة معلّمة الرياضيات التي تشعر بفوقيّتها علينا

دائماً، لأنّها ابنة معلمة، وصديقة المعلّمات يهتممن بها وبشؤونها، فتلاقي منهنّ من الدّلال والمحبّة ما لا نلاقيه أبداً.

يدقّ الجرس لنعود إلى صفوفنا، وتسرع منى إلى الجلوس في مكانها في السّطر الأول من الصف، وتتأكّد من التصاق طاولتها الخشبية بطاولة المعلمة.

تدخل معلمتنا أبلة زينب الصّف، نهبّ واقفات لنردّ عليها التحية الصباحيّة بصوتنا الموحّد الذي تدبّ فيه الحماسة، ما يهزّ بلاط الأرضية المخلوع من شدّة فركه.

- صباح الخير!

- صباااااح النور!

تأمرنا بالجلوس فنجلس.

يتوقّف ضجيجنا لدرجة سماع رنين دبّوس إن وقع أرضاً.

كنت أخاف أبلة زينب.

نسمّيها زينب المسيحيّة نظراً إلى ديانتها المختلفة عنّا. كانت بدينة ترتدي تنانير تكاد تغطّي ركبتيْها، وشعرها قصير. تضعُ نظّارات سميكة تصغر من حجم عينيْها. كانت قاسية كالراهبات في بيوت للقطاء، ترتدي السواد دائماً بعدما استشهد زوجها في الانتفاضة، تنتقم منّا لاستشهاده، فتُرعبنا دائماً في حصّة الإملاء: "يالله اكتبوا، الزهرة صورة الرقة".

تقترب من دفتر منى الأسطل، وتمرّر بأصابعها على السّطر الذي تكتبه لتنبّهها إلى خطأ إملائيّ: "إنتبهوا إذا التاء مفتوحة ولا

مربوطة!".

تمرّ من بين المقاعد لتراقب الغشّاشات الصّغيرات وتقبض عليهنّ لتحشرهنّ في الزاوية أمام النافذة بجانبها مكان عقابها المفضّل.

يدقّ الجرس وتنتهي الحصّة. فتأمرنا برفع الأقلام فوراً دون أيّ حركة إضافيّة. تطلب من منى جمع الدفاتر ووضعها على طاولتها لتصحيحها، فتفعل منى ما تطلبه الأبلة بحماسة، وتعود إلى مقعدها لتفتح كتاب الجغرافيا.

تبدأ حصّة الجغرافيا، فتسألنا أبلة زينب عن موقع فلسطين بين القارّات.

رفعت منى إصبعها كعادتها وهزّته بشدة، ما أثار غضبي، فهززت بإصبعي جكارة بها وبأبلة زينب. شعرت بألم فرقعة إصبعي الذي أهزّه دون جدوى، وهمست في أذن ريحانة جارتي في المقعد: "راح تشوفي، والله لتخليها هي اللي تجاوب وتعمل حالها مش شايفاني!".

أسندت ذراع يدي المرفوعة بيدي الأخرى، وهززت بإصبعي من جديد. اختارت أبلة زينب منى: "متل العادة فش إلا منى اللي محضرة الدرس!".

استشطت غضباً، وشعرت أنّني أود لو أنفجر كقنبلة يدويّة فأقتل كلّ من في الصف وأوّلهنّ أبلة زينب ومنى.

لم تكن هذه المرّة الأولى التي تهتمّ فيها أبلة زينب بمنى، فمعظم

المدرّسات في مدارس اللاجئين يسلّطن الأضواء والاهتمام على بنات المعلمات والمديرات. أمّا نحن، بنات المخيّمات وبنات العمّال، فلا معاملة معنا سوى معاملة الجرذان، فنجرّ في طوابير صباحيّة لإجراء التطعيم خوفاً من تفشّي الأمراض بيننا وانتقال العدوى للمدنيّين في غزّة.

كنّا نعامل بتفرقة تذكّرنا دائماً بأنّنا لسنا مدنيّات، والحقوق تختلف، وإن كنّا مجتهدات.

توقّفت عن منافسة منى، وقرّرت أن ألفتَ نظر مَن حولي عن طريق إخافة الطلاب منّي، تماماً كما يفعل نضال في حارة السود، أؤكّد لهنّ مدى شجاعتي بأن أسرق الطباشير، فلا تجد أبلة زينب ما تكتب به على اللوح أو بأن أضع الديدان الأرضية في حقيبتها وأعدهنّ بالانتقام منها في أقرب وقت، وسرعان ما يتحقّق ما أعدهنّ به.

كتبت خطة لسرقة الكراسات الجديدة من خزانة الصف الخلفية لأوزّعها على أفراد عصابتنا قبل توزيعها على بنات المعلّمات. كتبتها على ورقة، وهمست لريحانة أن تسلمها لعبد الله، ففُضحنا بسبب خوف ريحانة التي أخذت ترتعش وتحدث أصواتاً في مقعدها حتّى أوقعت الورقة أرضاً. هممت بالتقاطها، فضربت أبلة زينب بالمسطرة الخشبيّة الكبيرة على الطاولة بشدّة. توقّف الجميع عن القراءة، وتوجّهن بأنظارهنّ إلى ما يحدث.

وقفت أبلة زينب متّجهة إلى مقاعدنا الدّراسية، أنا وريحانة،

ما زاد خوفي من أن تلتقط الورقة وتقرأ ما فيها، فيجنّ جنونها، وترسلني إلى مكتب المديرة لأعاقب أمام الطابور الصباحيّ.

صارت تقترب، وصرت أدوس بنعلي الأسود وأنا أمدّ برجلي إلى مكان الورقة لكي أجلبها في اتّجاهي، ونجحت في ذلك، فانحنيت والتقطتها بحركة سريعة، لمحتني فيها الأبلة البدينة: "سيبي الورقة فوراً وأعطيني إياها!".

لم أنصت إليها، وبحركة سريعة أخرى، حشوت الورقة في فمي وصرت ألوكها بين أسناني.

جنّ جنون أبلة زينب، واقتربت من مقعدي أكثر بخطاها الثقيلة وهي تعدل تيشيرتها الضيق لتخفي ترهّلاً في بطنها. أمرتني بالوقوف وأن أمدّ يديّ الاثنتيْن. رفعت المسطرة الخشبية إلى الأعلى، وانهالت بها على باطن كفّي اليمنى فاليسرى من دون أن تسمح لي أن أفركهما بمريولي لأخفّف الألم. ظلّت تضربني وأنا أراقب الترهّل في بطنها كي أهوّن عن نفسي ألمي، أنظر إلى بطنها وأنا غير مبالية لفتافيت الخشب الصغيرة التي دخلت باطن كفي، فضربتني على جنبي وقفاي. كنت أتألّم دون أن أذرف دمعة، فيزداد جنونها.

لم أنجح في الإفلات منها إلّا حين دخل حارس المدرسة الصفّ ليلمّ القمامة من السلّة. أمرتني بالجلوس خوفاً من انتهاء الحصّة دون أن نتعلّم شيئاً. جلست والغضب يتجمّع من حول أنفي فيتحوّل إلى كتل بركانية تخنقني، ويصعب عليّ التّنفس. أراقب

حركات ردفيها الكبيرين وهي في طريقها للجلوس خلف طاولتها. قرّرت الانتقام منها.

عند انتهاء الحصّة الأخيرة، وفيما كانت الأبلة منهمكة في تصحيح دفاتر الإملاء، تسلّلت بخفّة، وسرقت مفتاح الصّف عن طرف الطاولة التي جلست خلفها. لحسن حظّي، لم تنتبه إلى أيّ حركة. أغلقت عليها باب الصفّ بحركة واحدة، وركضت مسرعة في اتّجاه العصابة الصغيرة التي تنتظرني في ساحة المدرسة الترابية.

هربت معهم وأنا أنشد فرحةً بانتصاري لانتقامي منها: "ادحدل يا برميل الكاز، أبلة زينب إلها طياز! والدبة وقعت في البير وصاحبها واحد خنزير!".

أغني وأتسكع، وأقودهم إلى محلّ حلويات "أبو محمود" الكحتوت الذي يشتمنا في كلّ مرّة نمرّ فيها أمام محلّه. مددت يدي وسرقت حبّات من العوّامة البرتقالية المصفوفة بانتظام على صواني الألمنيوم الكبيرة لأوزّعها عليهم.

عاد الجميعُ إلى منازلهم، وبقيت أمشي في طريق عودتي إلى حارة السّود.

كنت أشعر بفخر لانتقامي لنفسي ولصبية الحارة من مدارس "الأونروا" التي تفرّق بيننا ولا ترانا. حلّ المساء وهجرني الجميع شيئاً فشيئاً حتّى أصبحت وحيدةً تماماً.

شعرت فجأةً بخوف مريع راح يحلّ محلّ الانتصار والفرح. خفت من خيزرانة أمّي الرّفيعة، ومن عكّاز جدي ونربيش الحمام

الأسود الذي ستقطعه أمّي على جسدي بسبب تأخّري عن المنزل وحبسي للأبلة.

تهت في العتمة وأنا أبحث عن مفترق الطّريق المرشد إلى حارة السود.

فكّرت في حزام أبي الجلديّ يرسم تورّماً أحمر على كامل جسدي حين يعود من عمله في عطلة الأسبوع وتخبره أمّي بما حدث بعد أن تصبح سيرتي على كلّ لسان. فزعت من فكرة فضّ العصابة ونبذي من اللعب مع الصبية والصبايا الآخرين في المدرسة، ومع عبد الله ورامي أبو كرش اللذين ستمنعهما أمّهما من الاختلاط بي. كنت أمشي متمنّية أن تخبطني سيارة، فأموت في وقتها.

في حارة السود حيث نعيش، تتحوّل قضايانا الصغيرة إلى خوف من الموت، إذ سينهش لحومنا الصغيرة دود الأرض. يثير ذعرنا ما سيشاع عنّا من أحاديث وسير أكثر ممّا يثيره صاروخ يهوديّ قد يسقط فجأةً ليهشّم رؤوسنا الصغيرة.

فكّرت بسخرية نضال من فشلي الذّريع في منافسته.

تغطّي العتمة السّماء، والجوّ يزداد برودةً. فيما كنت أمشي، وجدت طريق البيارة، فارتحت قليلاً لأنّني حتّما سأعرف طريق العودة من البيارة إلى دارنا في الحارة.

فيما كنت أقترب من بوّابة البيارة، رأيت شبحاً يختفي بين نباتات الصبار. سلّطت على وجهي أضواء سيّارة صفراء اتّجهت نحوي. ميّزت الصّوت الذي أعرفه من بين كلّ أصوات سيّارات الحارة.

يمتلك صاحب أبي، سعد الصريف، سيّارة من ماركة فولس فاجن بيضاء وقديمة ذات محرّك مهترئ يصدر صوت "قرقعة". يبيع سعد - إلى جانب إدارته مصنع الخياطة - سيارات قديمة لأهالي الحارة بعد ترميمها وتصليحها. توقّفت السيارةُ بجانبي، فرأيت من نافذة السيارة وجه أمّي تكاد شرايينه تتمزّق من الغضب. نزلت من السيّارة، وفتحت الباب بشدة، واقتربت منّي وهي هائجة كالثور. أمسكت بيدي وعدّلت بالأخرى شالها.

سحبتني ككبشٍ صغيرٍ يجرّ إلى المسلخة. هي تسحبني وأنا أحاول جاهدة أن ألصق قدميّ في الأرض كي أظلّ في مكاني، لكنّني فشلت وانهرت باكية: "والله ما عملت إيشي، هي ضربتني، هي حاطة ضدي عشان بكره منى، والله إسألي عبد الله وريحانة، أنا ما عملت إيشي...".

جرّتني من أذني، وألقت بي في المقعد الخلفيّ في السيارة.

أحاطنا الصّمت، وشكرت الله في نهاية الأمر لأنّ سعد الصريف جاء برفقتها للبحث عنّي. وتخيّلت أنّ أمّي لن تتركه يعود إلى داره من دون أن تضيّفه وتحضّر له الشاي والمقبّلات، وسيأخذهما الحديث فتنسى أمر تأخّري وتوهاني، وسأنام بسلام من دون ضرب.

سارت الأمور كما توقّعت. جلست، هي وسعد الصريف، أمام عتبة الدار يتحدّثان في أمور العمل والبيع.

استغللت الفرصة، ووضعت رأسي على المخدّة، وغطّيت

وجهي بالحرام الثقيل. وما إن غفوت قليلاً بسبب الإنهاك والتعب مرتدية مريول المدرسة المتّسخ، حتّى رنّ في أذني صراخ أختي أمل التي أزاحت البطانية عن وجهي: "إلحقي، إشردي أمي أجت بالنبريش!"، وهو خرطوم الماء الأسود الذي نستخدمه في الشطف.

قدمت أمّي إليّ كالغولة في حدوتة نص نصيص تحمله في يدها: "أي والله لأسلخ جلدك سلخ، يا متصبينة، ياللي بتمشي مع ولاد الحرام، وبترجعيلي في نصاص الليالي. وين بقيتي آه؟!".

حاولت الاحتماء خلف جسد كفاح، ولكن نبريش أمّي لم يعرف الفرق، فانهال على جسدينا معاً.

صرت أنطّ في مكاني، أبكي بحرقة، وأمسح مخاطي بكفّ مريولي، أتوسّلها أن تتوقّف: "يماا، أمانة، والله ما كنت لا مع رامي ولا عبد الله ولا رحت على البيارة، تهت، تهت، أمانة تضربنيش...".

تنهال الضربات عليّ كما تنهال طلقات رصاص اليهود على شباب المخيّم المتظاهرين: "يما بتوب، والله بتوب..."

تهدّدني: "والله، بس يجي أبوكي لأخلي يذبحك وأفتك منك ومن فضايحك!".

## V

كانت ليلتي قصيرة.

استيقظت على ألم انتشر في كامل جسدي من الضّربات.

تحسّست تورّماً في عينيّ، وخجلت من الزرقة التي تغطّي جسدي.

أرسلتني أمّي لشراء عشرة أقراص من الفلافل. وقفت في الدور، ولمحت عبد الله يملأ ساندويشته بالخيار المكبوس والباذنجان المقليّ. اقتربت منه، فهرب منّي، لفّ لي الصبيّ البائع الأقراص بورقة جريدة، وعدت إلى الدار أتوسّل أمّي أن أبقى في الفراش بسبب آلام الضّرب الموجعة، تظاهرت بالمرض ولكن دون فائدة.

وصلت المدرسة متأخّرة ببضع دقائق قضيتها في انتظار عبد الله لاصطحابي، لكنّه لم يأتِ.

دفعت بوّابة المدرسة الزرقاء بيدي، ورأيت الطابور يقف منضبطاً في انتظاري برئاسة المديرة فايزة.

اصطفّت المتفوّقات في الأمام كعادتهنّ مستعدّات لرفع

العلم وإلقاء النشيد الوطنيّ. وقفت، يتصبّب من جبيني العرق، ينظر الجميع إلى عينيّ المنتفختيْن. أمرتني المديرة بالتّقدّم منها، أمسكت بيديّ وفتحتهما. ضربتني بمسطرة الخشب التي تقترب في طولها من مسطرة أمّي لقياسات الخياطة. ضربتني أمام أبلة زينب التي ظلت تنظر إليّ بازدراء، وأمام منى الأسطل عدوّتي اللدودة، وأمام عيني عبد الله الذي هرب بهما كلّما نظرت إليه، وأمام صفّ المتفوّقات وأمام جميع تلاميذ المدرسة.

كان لهذا اليوم الأثر الكبير في علاقتي بالعصابة. رفع العلم الفلسطينيّ، وذاب صوتي في ترديدي النشيد مع الأصوات الأخرى: "بحق القسم تحت ظلّ العلم، بأرضي وشعبي ونار الألم، سأحيا فدائي، وأمضي فدائي وأقضي فدائي".

حمدت الله أنّ عبد الله لم يشِ بي لأمّي، ولم ينتشر الخبر كما تخيّلت، فقد أنقذني حظر التجول الذي فرضه الجنود اليهود على الحارة، والإضراب العام الذي قررّه العمّال في قطاع غزّة من جديد.

أغلق البلبيسي دكّانه مبكراً، وأغلق سكّان الحارة أبوابهم ونوافذهم خوفاً من سيّارات الجيب الخضراء التي تمرّ في شوارع الحارة الرملية مهدّدة عبر مكبّرات الصّوت: "عا البيت، عا البيت، إرجع عا البيت".

## VI

توتّر جوّ الحارة العام مع الإضراب وحظر التجوّل، وما زاد الطين بلّة عثور أحد الفدائيّين على جثة فتاة في البيارة حين حاول الاختباء بين أشواك الصبار هرباً من اليهود.

صارت جثة الفتاة ذات الوجه المشوّه بشفرة حديث الألسنة في الحارة، واعتقد الجميع أنّ جنود الاحتلال اغتصبوها، وقتلوها وشوّهوا وجهها وألقوا بها في البيارة، فيما اعتقد آخرون أنّها قد تكون من بنات الحرام اللاتي قتلن لمحو العار عن عائلتهنّ.

بعد هذه الحادثة المريبة التي صعقت سكان الحارة، شدّدت أمي الحراسة علينا، ولم تعد لي أيّ علاقة بعبد الله ورامي اللذيْن اختفيا مع أمّهما، وانتقلوا جميعاً للعيش في مخيّم جباليا.

مرّ الوقت بطيئاً بين حظر التجوّل والإضراب العام، ومُنعنا من الخروج، فصرت ألعب مع أخواتي في باحة الدار الخلفيّة، وأتعلّم الخياطة مع أمّي لأقتل الوقت. خفت على عبد الله ورامي، وتمنّيت لو يأتيني أحدهم بأخبار عنهما.

صرت أقضي معظم وقتي في المذاكرة استعداداً لامتحانات نهاية السنة الدراسيّة، أتنافس مع صبيان الحارة في السّهر حتّى مطلع الفجر للمذاكرة، أراقب الأضواء الصفراء المشتعلة من النوافذ البعيدة، فأتشجع وأواصل دراستي. هدأت الأمور في الحارة بعدما أوقف اليهود حظر التجوّل الليلي ورحلوا إلى الحارة المجاورة. انفرجت أسارير أهالي الحارة، ودبّت الحياة في شوارعها من جديد، وسمحت لنا أمّي باللعب أمام الدّار.

فرحت بيوم عودتي إلى المدرسة وأنا في أتمّ الاستعداد لتقديم الامتحان.

مرّ اليوم على خير باستثناء زخّات المطر المتواصلة على رؤوسنا في طريق العودة إلى دورنا والعتمة المبكرة في فصل الشتاء.

عدت إلى الحارة، وحين وصلت إلى مفترق مدخلها، شعرت بخطوات أقدام تلحق بي. فزعت ولم أجرؤ على الالتفات ورائي. أسرعت في مشيتي، فشعرت بالخطوات تسرع خلفي. تعثّرت ووقعت أرضاً على وجهي. تبعثرت كتبي وأقلامي كلّها، وتبلّلت بمياه المطر. مدّ ملاحقي يده لمساعدتي هامساً في أذني: "تخافيش مش راح أأذيكي".

التفتّ إلى مصدر الصّوت ويداي ترتجفان خوفاً، والذعر يربط لساني، ويمنعني من أن أتفوّه بأيّ كلمة. ظللت متسمّرة وعيناي فاغرتان أنظر إليه ولا أصدّق ما أرى. أخذ يلملم كتبي وأقلامي المبعثرة ويدسّها في حقيبتي. شلّ الخوف جسدي،

ولم أفهم أبداً ما يحدث، ولم يخرج أحدٌ من سكان الحارة لنجدتي. رأيت آثاراً للدّماء على قميصه، ووجهه المغبّر تغطّيه حطة خضراء، وعيناه بدتا منهكتيْن. أخبرني وهو يحشو الكتب في حقيبتي: "أنا طالع بكرا عا المعبر، لقيت شغل عند اليهود ومش راجع، كنت بدي أودعك".

هرب الملثّم بجسده كالشبح، وضاع في عتمة الحارة.

حاولت الوقوف مجدّداً لأمسح بلل المطر عن مريولي، وعدّلته ليصل أسفل ركبتي. حاولت مسح الدّم عن كولوني الصوفي الأبيض الملتصق بجرح في ركبتي، واحتضنت حقيبتي وكتبي المبللة، ومسحت آثار الدماء والرّمال التي تركها الملثم على الحقيبة. أعرج وأجرّ قدميّ ببطء إلى أن وصلت إلى بوّابة منزلنا الحديديّة. أزحت البطانية الرمادية، ورتبت أشيائي. دخلت المنزل، وبسرعة، ألقيت أغراضي في الممرّ، وأغلقت على نفسي باب الحمام.

لحسن حظي، أغلقت أخواتي الغرفة كي لا يسمحن لمياه المطر بدخولها، فيما سمعت عجلة ماكينة الخياطة في الصالون، ودخلت مسرعة لأسخّن مياهاً أغسل بها آثار الدماء عن ركبتي وكتبي.

استيقظ الجميع على صراخ أم ريالة تلطم على خدّيها وتخبط عمود الكهرباء الطويل الذي ينير الحارة برأسها، بعد أن وجدت جثة ابنها نضال المشوهة معلّقة أعلى العمود.

خرجنا من الدار مرتعبين بسبب الصراخ لنرى ما يحدث مع سكان الحارة، فوجدنا الجثة المعلقة وحائط منزلهم الأماميّ

المدهون بالأسود: "هاض جزاء الجواسيس".

أدخلتنا أمّي بسرعة إلى الدار بعد أن اقترب جيب يهودي أخضر من مدخل الحارة. أغلقت الباب وأحكمت إغلاق النّوافذ. حشرنا جميعنا في غرفة المنزل الخلفيّة، وجلسنا في العتمة نستمع لبكاء أم ريالة وصراخها المتواصل، فيما ردّ مكبّر صوت الجنود: "ادخلي عا البيت، عا البيت ممنوع الخروج، عا البيت، عا البيت".

صُعقنا لما حل بأم ريالة وابنها نضال، ولم نصدّق أنّه قد يكون جاسوساً لليهود.

ظنّ الجميع أنّ للعبيد علاقة بالأمر، خاصّة عائلة "أبو سمرا"، إذ تشاجر نضال مع ابنهم الكبير، وعلّقت أم ريالة رجل حمار مقطوعة على باب دارهم لإخافتهم بعدما ضربوا ابنها. كما أصرّت أم ريالة أيضاً على منع أهل الحارة من دفن ابن "أبو سمرا" الشهيد في مقبرة الشهداء، وذلك لتنتقم منهم، وتذكّرهم بأنّهم عبيد مكروهون وغير مرحّب بهم بيننا.

أصبحت المشاجرات بين دار "أبو ريالة" ودار "أبو سمرا" قبل حادثة اغتيال نضال حديث الحارة. وصار صراخ كلّ من أفراد العائلتين مسموعاً بوضوح في منتصف الليل ووضح النّهار.

جنّت أم ريالة وصارت تدور في شوارع الحارة الصامتة، تلوم العبيد ودار "أبو سمرا" على حادثة اغتيال ابنها نضال: "العبيد قتلوا ابني، العبيد وزّو عليه، العبيد قتلوا ابني".

أصبحت الحارة مكاناً مخيفاً للعيش فيه، وظنّت أمّي أنّ لليهود

يداً في ذلك. كثرت قصص الخطف والسّرقة، فكنّا نهرب مع أمّي إلى بيت جدّتي وجدّي "أبو شنب" لنختبئ من رصاصات الجنود اليهود حين كانوا يدخلون البيوت عنوةً بحثاً عن الملثّمين الفدائيّين.

تناقل أهل الحارة أخباراً عن اغتصاب الجنود لفتيات فلسطينيّات لتجنيدهنّ لاحقاً واستخدامهنّ كجواسيس مقابل ألا يفضحهنّ في الحارة. فازداد خوف أمّي علينا خاصّة بعد هجرة أبي إلى صحراء الإمارات للبحث عن عمل وبقائها وحيدة معنا.

## VII

أيقظتنا أمّي قبيل الفجر، وأمرتنا بغسل وجوهنا، وصفّفت لنا شعورنا، وهندمت مظهرنا وسط تذمّرنا واندهاشنا.

لملمت وثائق السّفر وشهادات الميلاد والشهادات المدرسيّة، ووضعتها في حقيبة السامسونايت السّوداء، وأعطتها لأختي الكبرى كفاح، وأمرتها أن تقفلها برمز سرّيّ. لم نفهم ما يحدث. نظرنا إلى بعضنا بعضاً باستغراب ونحن نراقب دموعها المختلطة بكحلها الأسود.

لفّت شعرها الفحميّ بإيشارب حريريّ مزيّن بورود جوريّة كبيرة، وتأكّدت من جديد أنّ فساتيننا القطنية مرتبة. لاحظت خيطاً صغيراً تمرّد من طيّات فستان أختي أمل، فقطعته بأسنانها.

اقترب صوت قرقعة السّيّارة الّتي يقودها سعد الصريف من دار جدي "أبو ذياب". ودّعنا جدتي هدباء ولم ننتظر عودة جدّي من المدرسة. حشرتنا أمّي في المقاعد الخلفيّة، وجلست إلى جانب سعد الذي توجّه بنا إلى الحدود المصريّة.

أوقفنا جنديّ يهوديّ ليفحص أوراقنا الثبوتية وتصاريح خروجنا قبل أن يودّعنا العم سعد لنستقلّ سيّارة تاكسي تقلّنا إلى الجهة الأخرى من الحدود المحتلة. وقفنا أمام ماكينة تصوير، وغطّى المصوّر رأسه بقماش أسود، والتقط لنا صورة جماعية ثبّتتها أمّي أعلى التصريح، واحتفظت بأخرى في حقيبة يدها.

وقفنا في طابور طويل من المسافرين تختلط فيه لغات المتحدّثين ما بين العبرية والعربية حتّى دخلنا باصاً كبيراً. أجبرتنا أمّي على الجلوس بجانبها، وطمأنتنا أننا سنرحل لنعيش مع أبي في الصّحراء. حدّثتنا عن رغد العيش في الخليج وعن قصص فلسطينيّين هاجروا إلى هناك ولم يتذوّقوا طعم الجوع أبداً بعدها.

تمعّنت في سورة يس الصّغيرة المكتوبة بخط ذهبيّ على قماش أسود علّقها السائق حول مرآته، وشاهدت صوراً صغيرة بالأبيض والأسود لأخيه السّجين وأخرى لأطفاله ألصقها على النافذة الجانبية للباص حيث يجلس.

نزل الجنديّ اليهوديّ من الباص بعد أن تحقّق من هويّاتنا، فيما كنت أودّع، وأنا أجلس في حضن أختي الكبيرة، البلاد من النافذة، وبكيت من التعب والحزن على فراق جدّي "أبو ذياب" الذي لم أودّعه، وفراقي جدّتي المجنونة ودارنا، وعبد الله الذي لم يعلم برحيلي المفاجئ.

# VIII

وصلنا إلى قرية بومعيز في حزيران ١٩٨٦ حيث كان أبي يعيش في كرفانة صغيرة مع عمّال آسيويّين بعد أن وجد عمل سائقٍ ثقيلٍ لتانكر ماء ينقل فيه مياه الشرب الصّالحة إلى البدو الإماراتيّين الذين يخيّمون في الصحراء. حين وصلنا، أصرّت أمي على تشييد غرفة وصالة لنعيش فيهما بدلاً من الكرفانة الصغيرة. كّنا نعاني الحرّ والخنقة بعد أن نظلّ محبوسات طوال اليوم نعين أبي وأمّي في تشييد الغرفة الجديدة. لم يكن قربنا سوى بعض العمّال العزّاب من الآسيويّين، وجار سودانيّ وصل أخيراً ليعمل في مدّ خطوط الكهرباء إلى القرية التي نعيش فيها.

كنت أجلس مع أخواتي طوال اليوم في الكرفانة، نتمدّد على السّجادة المفروشة لنبحث عن مكان مناسب يصلنا فيه هواء المكيّف ليخفّف الحرارة، فيما يذهب أبي إلى عمله في الصّباح، ويعود في الثالثة بعد الظهر، فتعمل أمّي على تجهيز الطعام على جرّة الغاز الصغيرة التي وضعتها على رمال الصحراء خارج الكرفانة.

نساعدها في غسل المواعين وسقي شجرة نخيل صغيرة نمت بجانب الكرفانة، لكن بما أنّه لم يكن لدينا ما يكفي من المال لنشتري به صابوناً لغسل المواعين، كانت أمّي تستخدم رماد الفحم الأسود والخلّ الأبيض والليمون البريّ الأخضر لتطهيرها وهي تبكي وتمسح دموعها مدّعية أنّ تقشير البصل يورّم عينيْها.

استغلّت أمّي المساحة الموجودة أمام الغرفة التي انتهينا من تشييدها، وزرعت شجرة حنّاء وشجرة ليمون أخضر برّيّ ونبات الفلّ المعطّر، وشيّدت خلف الغرفة خُماً صغيراً للدجاجات كخمّ جدّتي آمنة في حارة السّود، وصارت تبيع البيض والدجاج للعمّال، واشترت بالثمن ماعزاً صغيرة نلهو معها.

لولا أمّي، ما تدبّر أبي أموره في هذه الصّحراء المعزولة عن البشر.

تطلب أمّي من العمّال الذين يعملون في ريّ مزارع الأثرياء من المواطنين أن يأتوا إلينا بالخضار مقابل أن تطبخ لهم وجبات الغذاء. كان يوم بهجتنا حين يصطحب أبي زميلاً إلى وجبة الغذاء، إذ نهرب كالقطط الصّغيرة إلى الغرفة، ونتلصّص من فتحة الباب الصغيرة على الزائر لنلهي أنفسنا، فيما تركض أختي الكبيرة كفاح إلى المطبخ لتعيل أمّي في تحضير الغذاء وتقديم الشاي والقهوة.

كنّا نخرج لنلعب مع الماعز الصغيرة التي اشترتها أمّي، ونراقب بعض الجمال التائهة والأبقار التي تبحث في النفايات عن بقايا غذاء. وعندما نتّجه إلى الشارع الرّملي حول الدار، لا نجد سوى

رمال الصّحراء النّاعمة وتلالها التي تحيط بنا لنتدحرج فوقها، فتلسعنا حرارتها.

بعدها، نذهب إلى زريبة المعز حيث يعيش جارنا السوداني الكهربائي فنعتني بها إلى أن يعود من العمل. نطعمها من بقايا طبخنا، ونسقيها ما تبقّى من مياه التانكر أو الشاحنة التي يفرغها أبي ليسقي بها شجر الدار، تحت رقابة عينيّ أمي من خلف ستار الغرفة الثقيل خوفاً علينا من العمّال العازبين، ثمّ نعود إلى المنزل لنحضّر الشاي لأبي قبل أن نوقظه ونتوسّله للّذهاب لزيارة المدن الكبيرة التي تبعد عن قريتنا حوالى ساعة، فيتحجّج بأنه لا يمتلك سيّارة، وبأنّ تانكر الماء ليس فيه سوى مقعدين، وسيفصل عن عمله إن استخدمه لنقل عائلته.

نذهب لنتوسّل جارنا ليعير أبي سيّارة الشركة الخاصّة به، فتوبّخنا أمّي لأننا ذهبنا من دون علمها، وتصرخ في وجهنا إن اقتربنا من فراش أبي لنوقظه.

يتأخّر الليل ولا يستيقظ أبي. فنخلد إلى النّوم، وننتظر صباح اليوم التالي لنزور زريبة المعز.

في قرية بومعيز لا شيء يقهر الملل ويقتله سوى النّوم.

تعرّفنا فيما بعد إلى صديق أبي الجديد الباكستاني أكبر خان الذي قدم وزوجته حديثاً إلى القرية.

تعلّمنا من زوجته طهو بعض أطباقهم الشهيّة خاصّة خبز البراطة

وشاي الكرك، وهو شاي يخلط بالحليب المركّز، يضاف إليه الهيل والقرفة. كان أكبر خان يعمل في ذبح خراف الأعياد. ولم نصدّق أعيننا حينما أهدانا خروفاً في أوّل عيد أضحى قضيناه في قرية بومعيز. سرق أكبر خان الخروف من عزبة الخليجي الثري الذي كان يعمل لديه، وأخبره أنّ أحد خرافه مات فطيسة من الحرّ. كان أكبر خان يعيش في عزبة مع الحيوانات في منتصف الصحراء حيث لا إنس ولا جنّ ليونسه، فكان أبي يذهب في كلّ مرّة لتزويده بالطّعام وقضاء بعض الوقت في صحبته، ويصطحبنا معه لنرى مزرعة الخراف والجمال والمعز والدّواجن وطيوراً مختلفة، التي يحرسها.

استيقظنا يومذاك على صوت تكبيرات العيد تصدح عالياً من "مسجد أبو شكور الباتاني"، وبدأنا ترتيب الغرفة والصالون والمطبخ وشطفها كلّها. اشترى لنا أبي فساتين مزركشة الألوان متطابقة من سوق نايف، وهو سوق يرتاده الهنود والباكستانيّون لرخص أسعاره. وجلسنا ننتظر أمام الباب زيارة عائلة أمي الّتي تعيش في المدن الكبيرة البعيدة عنّا. حلّ المساء ولم يأتِ أحدٌ، ولكي تفرحنا أمّي وتخفّف مللنا، طلبت منّا مساعدتها في تقسيم قطع اللحم لتوزيعها مع أبي على العمّال خاصّة أولئك المعزولين في العزب، فحضّرنا صواني الألمنيوم الكبيرة وأكياس النايلون الزرقاء، وجلسنا إلى جوارها تغطّي رؤوسنا الصغيرة شاشات قطنيّة بيضاء. نغمس كفّ أيادينا اليمنى بدماء الخروف ونطبعها على واجهة الدار

لإبعاد الشرّ عن بيتنا الصّغير، لكنّ العيد مرّ ولم يزرنا أحدٌ. وزّعنا مع أبي أكياس اللحمة على العمّال، وحصلنا على بعض الحلويات والتمور الطازجة في المقابل.

عشنا سنوات رحيلنا الأولى إلى القرية منبوذات من عائلة أمّي الثّريّة، لا يزورنا واحدٌ منها إلّا إن شعروا بتعب في التنقل بين مدينة وأخرى لزيارة بعضهم بعضاً، فيتوقّفون أمام دارنا لقضاء حاجتهم وكسر جوع أطفالهم ثمّ يواصلون رحلتهم.

وقبل أن تغادر خالتي الكبيرة زهانة، تلقي لنا بأكياس من الثياب المستخدمة لنلبسها، فيلقيها أبي في برميل القمامة الحديدي. تبكي أمّي، وتتشاجر معه كلّ مرة.

– خلي البنات يفرحن بأواعي جديدة.

– أنا بلبسش بناتي ثوب الذل.

في أواخر ١٩٨٨، فقد أبي عمله، وفي تلك الصّبيحة، استيقظنا على شجاره مع أمّي، تلومه لتركه العمل مع أخيها.

– إنت كسلك اللي راح يضيعنا، إصبر عليه بدفعلك.

– إنت اللي أهلك كلهم حرامية ونصابين وقطاعين وصل.

لملمت أمّي أشياءَها في الحقائب التي رتّبتها فوق الخزانة الخشبيّة حتّى وقت عودتنا إلى غزّة، وخرجت من الغرفة ونحن نلحق بها ونبكي، فيما نسمعها تصرخ: "والله ما أقعد عندك يا هامل، يا كسول، كل الناس صارت ووصلت إلا إحنا".

اعتبر أبي في الأمر إهانة له، ولزوجته، ولنا نحن البنات، إضافة

إلى إهانة أخرى هي قبوله العمل عند فلاح ابن "أبو شنب" النصّاب.

ظلت أمّي جالسة في الصحراء على حقيبة السّفر الجلدية البنية الكبيرة تمسح عرقها المتواصل، وتوبّخنا إن اقتربنا منها: "خشّن جوا والله لأذبحكن ذبح، يلعن أبوكن كلكن".

عدت مع أخواتي إلى الغرفة ننظر إليها من خلف الستارة الثقيلة من نافذة الغرفة، ونراقب أبي يخرج للحاق بها ليعيدها. فترفض ويشتدّ شجارُهما من جديد.

اقترب أبي من الغرفة، فنبّهت أخواتي: "إطفن الضو، إطفن بسرعة، بسرعة أبوي رجع معصب".

استلقينا على الأرض نلتصق ببعضنا بعضاً، وعمّ صمتنا في الغرفة كصمت القبور. رفع أبي الغطاء عن وجوهنا بحركة يد غاضبة، وسقط رماد من سيجارة لاكي سترايك في فمي. ابتلعت ريقي متقزّزة من الرّماد، فيما تابع أبي تدخين السيجارة: "قومي إنت وإياها إعجنن وإخبزن وحضرن غدا، بنت الكلب مش راضية ترجع عا الدار".

هبّت كفاح فزعة، وقمنا نجري خلفها نحضّر العجين والقهوة لنسكت غضبه، فيما انسللت مع أختي أمل لنبحث عن أمّي لنعيدها، أبصق رماد السيجارة وتحرق رمال الصحراء السّاخنة أقدامنا الحافية.

لمحناها من بعيد تجلس أمام بقالة محمد البنغالي وبيدها زجاجة ماء بلاستيكيّة.

ازداد الشجار بين أبي وأمّي بعد عطالته عن العمل، وصار روتين حياتنا اليوميّ مسبات أحدهما للآخر.

– الله يقطع اليوم اللي أخذتك فيه، يا ريتني أخذت من الزرايب ولا من جنسك.

– بصحلك يا فلاحة إنتي وأبوكي وأهلك تناسبو شيوخ البدو.

– آه نوخذ الهمل اللي الذباب بوكل وجهم تحت الخيم.

– مش أحسن من الخونة، ولك لو أبوكي مش خاين كان ما أعطوه اليهود المخترة، تفيه عليكي إنت وأهلك.

يلحق أبي بأمّي إلى خارج الدّار، فتهدّده أمّي بفتح بطنه بسكّين المطبخ. يتركها خارج الدار، ويغلق باب الصالون، ويعود لينام.

نفتح لها الباب بعد أن يغطّ في نومه العميق، فتعود لتنام في غرفتنا.

ينام أبي طوال النهار ولا يستيقظ إلّا عند الفجر، فيوقظ أمّي لتحضّر له الطعام، فترفض، وتوبّخه إن أيقظنا في ساعة الفجر المبكرة، فيفتح أبي علبة السردين الصّغيرة ويأكلها.

مرّت أيام عطالته عن العمل كالحبس في جهنّم.

يتحجّج أبي، ويختلق الأعذار لضربنا وركلنا والبصق في وجه أمّي لعلّه يخفّف غضبه.

يشعل التلفاز الصغير ويستمع للأخبار، ويراقب تطوّرات الانتفاضة عن قرب. يتابع تفاصيلها ويرفع صوت الأغاني الثوريّة عالياً، فيطغى على صوت جهاز التكييف: "بالأخضر كفناه،

بالأحمر كفناه، بالأبيض كفناه، بالأسود كفناه...".

نتوقّف عن الحديث كي لا نزعجه، فيصلنا صوته الغاضب: "الله يلعن أبو كي إنت وإياها، روحن عا الغرفة جوا بديش أسمع نفس".

نراقبه من خلف الباب يعيش اللحظة كأنّه هو من يلقي بالحجارة ويتلقّى الرصاص. ينتفض لانتفاضة الأطفال. يتفقّد وجوههم لعلّه يتعرّف إلى أحدهم، فيشعر أنّه لم يغادر القطاع يوماً ولم يفته شيء.

يرى فيديو لجنود يهود يكسرون بالحجارة عظام شاب في السّابعة عشرة من عمره. وفيما هو مندمج في المشاهدة، قرصتني أختي أمل وهربت فلحقت بها ليصطدم رأسي بكرش أبي فيضربني، ويركلني، ويشتمني: "أي والله لأسيح دمك يا بنت الكلب، إيش قلتلكن أنا؟".

أفلت من بين يديه بصعوبة، وأهرب لأختبئ في خمّ الدجاج، تلحق بي أمل وتضحك منّي مخرجة بلسانها في وجهي.

ينادي أبي أمّي: "يا هند تعالي، إجري، إلحقي، مسكوا ابن أبو كرش، كسرولو عظمو".

تركض أمّي مذعورة لتشاهد الأخبار، وتصرخ: "يا خيبتك يا أم رامي، يا خيبتك، دبحولها الولد، الله يصبر قلبها، الله يكسر عظامهم".

تغطي أمّي رأسها بشالة الصلاة البيضاء وتتجه إلى منزل جارنا أكبر خان لتستخدم الهاتف. تتصل بالحوالة الدولية.

تصطدم بي وأنا أهرب من دجاجة حمراء مجنونة تلحقُ بي

لتنقرني ظنّاً منها أنّني أريد سرقة بيضها! تلحق بي أمل وتسخر منّي، تدفعني أمّي عن عتبة الباب وتنهرني: "إدخلي جوا شو مطلعك في ها الحر، إمرقي لتنسطلي من الشمس".

لحقت بها إلى منزل جارنا لأعرف ما يحدث، فهي لا تستخدم هاتف الجيران إلّا عند حدوث المصائب. سمعت ما قالته لأبيها عن رامي أبو كرش. تسمّرت في مكاني، ولم أمنع نفسي من البكاء خوفاً على رامي وعبد الله. تذكّرت الحارة والبيارة والوجهه الملثم المغطّى بكوفيّة سوداء. فكّرت في أن يكون رامي قد عاد إلى القطاع وأمسك به اليهود ليذبحوه. لم أتفوّه بكلمة، وتركت أمّي تتحدّث إلى جارنا عمّا حدث. هربت خلف الدّار، وتسلّقت سلّماً حديديّاً، وصعدت إلى أعلى السّطح. صرت أبكي وأتذكّر أيّاماً لن تعود، وأرتعب من فكرة استشهاد عبد الله بعد أن أمسك اليهود بأخيه.

تراقبني الدّجاجة الحمراء وتنعف بمنقارها رمال الصحراء. أصرخ في وجهها، وألقيها بحجر من السّطح: "عا إيش بتطلعي يا بنت الكلب!".

نزلت من أعلى السّطح وشطّفت وجهي بمياه الخزان الأبيض البلاستيكي الكبير. توجّهت إلى الغرفة لأغطّي رأسي بشرشف النوم لكيلا تلاحظ أخواتي احمرار عينيّ، فيسخرْن منّي. دخلت أمّي خلفي بدقائق، وألقت شالها على الأرض بسبب الحرّ، وأغلقت الباب الخشبيّ خلفها عنوة، فسقطت لوحة العتّال الفلسطينيّ عن

الحائط، ووقع المسمار الذي يثبّتها.

أمسك أبي المسمار، وأخذ يدقّه بنعاله. ثبّت اللوحة من جديد، ورفع صوت التلفاز.

– وين الملايين، الشعب العربي وين، وييين... وييين...

جلست أمّي إلى جانب أبي تخبره عمّا قاله لها أبوها من أخبار سيّئة عن وضع الحارة والانتفاضة.

استلقيت في الغرفة، أغلقت عينيّ، وتمنّيت لو يحقّق الله طلبي في أن أعود فوراً إلى حارة السود لأطمئنّ إلى رامي وعبد الله.

نادتنا أمّي وأخواتي لنساعدها في نتش قطن الوسائد المغسول المجفّف. انتهينا من نتش القطن، وظلّت كفاح تخيط المخدات الجديدة معها.

صمت صوت التلفاز، وأطفأ أبي الأضواء في الصّالون، واستلقى على الفراش الأرضيّ، فألقت إليه أمّي بالمخدّة الجديدة لينام.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

## IX

على غير عادة، استجابت السّماء لدعائي.

رنّ الهاتف في دار جارنا السّوداني، فأتى مسرعاً ليوقظ أبي من نومه. كان يوم جمعة مملّاً كالعادة. فتحت أختي أمل الباب لجارنا الذي طرق الباب الحديديّ بقوّة وبضربات مستمرّة. عاد أبي يضرب كفّاً بالأخرى إذ وصله خبر مرض جدّي "أبو ذياب". يركل بقدمه بلاطاً صغيراً صفّفناه أنا وصابرين كصينية نتناول عليها الشاي. هربنا إلى الغرفة بعد أن رأينا الغضب يكاد يفجّر تجاعيد رُسمت على وجهه.

قرّر السّفر فوراً كي لا تحرمه الغربة وداعه. في فجر اليوم التالي، دخلنا جميعنا سيارة البويك رودماستر الأميركيّة المستعملة.

أحاول جاهدة تمديد قدمي لأجد القليل من الرّاحة بين أجساد أخواتي الصغيرات المتكدسات في مؤخّرة السيارة.

تلتصق وجوهنا بالزجاج الخلفيّ، ونزيح الستار المخمليّ الصّغير قليلاً كي تتسنّى لنا رؤية ما يحدث في الخارج، ولكن حرّ

الشمس الحارقة يمنعنا من ذلك، فنسارع إلى إغلاقه، وما يزيد الطين بلّة مكيّف السيارة الرديء الّذي لا يصل إلى آخرها. لعنت أخواتي الكبيرات، فهنّ يجلسن دائماً في المقاعد المريحة.

نمنا دون تأفّف ملتزمات الصمت، فأيّ تذمّر ممنوع، وسنعاقب عليه حتماً بالضرب من أبي.

جلست أمّي في المقدّمة إلى جانبه تحدّثه في أمور عدة عن الحارة وأخبارها التي تصلها من أبيها "أبو شنب". كانت السّاعة الرّابعة فجراً حين وصلنا الحدود البرّية السعودية. رفع أبي صوت المذياع ليستمع للأخبار ويؤنس نفسه كي لا يسهو وينام، وينادي أمّي من حين إلى آخر: "يا هند، يا هند، نمتي؟".

تستيقظ أمّي فزعة من غفلتها: "لا، أبداً، صاحية!".

فرحت حين عبرنا الحدود ودخلنا في رمال صحراء جديدة.

ساد الصّمت، وسرحت قليلاً أكتم سعادتي للقاء عبد الله ورامي بعد غيابنا ورحيلنا المفاجئ دون وداع.

صرت أتخيّل الحجج التي سأتملّص بها من أمّي لأهرب للقائهما في البيارة كما كنت أفعل. وارتحت لفكرة أنّنا حين نصل سيكون أبي مشغولاً مع الضيوف، ولن يلاحظ غيابي في دار جدّي.

في حارة السّود حيث عشت، سيأتي كلّ الجيران والجارات وربّما الأصدقاء الذين لا يعيشون في الحارة، والأقارب البعيدون، وجيران الجيران، سيأتون كلّهم للسّلام على أبي وللاطمئنان على جدّي.

سيفرحون لعودته زائراً بعد طول غياب، وسيأتي آخرون طمعاً بالهدايا أو لخطبتنا بعد أن صرنا صبايا بالغات. فكّرت في كلّ هذا بينما تمرّ على وجهي أضواء صفراء لمصابيح الشوارع العملاقة التي تنعكس على زجاج السيارة الخلفيّ حيث أنام بين أرجل أخواتي.

أحاول قتل الوقت، وأنا أعدّها واحدة واحدة.

تخبطني رِجل أختي الصغيرة صابرين، فأركلها في بطنها لأنتقم منها، فتصرخ اللعينة منزعجة: "يا زفتة تضلكيش تخبطيني، شو أعملك، وين بدك إياني أروح؟!".

ينتبه أبي إلى الصراخ القادم من مؤخرة السيارة، فيهدّدنا ويتوعّد: "علي الطلاق، إذا ما إنخرستن لأرميكن في ها الصحرا، وأخلص من قرفكن!".

ارتعبنا وصمتنا من الفور، ونمنا خوفاً منه.

استيقظنا عند حلول الصّباح حين أوقف أبي محرّك السيّارة، وفتحت أختي كفاح مؤخرة السيارة: "يا الله إنزلن، أبوي بدو يريحلو ساعتين".

توقف أبي أمام مسجد أبيض كبير ذي قبّة خضراء مزخرفة بلون ذهبيّ، ودخل لينام في مصلّى الرجال، وأما نحن، فاتّجهنا مع أمّي لنرتاح في مصلّى النساء، فيما طلب لنا أبي صينية كبيرة من الأرز البرياني لنأكل.

عاد أبي ليقود السيارة بعد أن صبّت له أمّي الشاي من التيرموس

الذي تحتفظ به بجانبها.

وفي اليوم الرّابع من رحلتنا الطويلة، وصلنا إلى منطقة الرصيفة في الأردن حيث ادّعى أبي وجود أقارب له.

لم ترق الفكرة لأمّي التي ارتعبت من أن يكون أبي قد خطّط لزواج إحدانا من قرابته من البدو، فيصبح مصيرنا مثل مصيرها: "وين بدك تحشرهن، البنات صارن صبايا، وكيف بدهن ينامن بنفس الدار مع ناس ما بنعرفهم؟!".

– ولك يا قطاعة هادول أهلي، تضلكيش تنقي!

– من وين أهلك وهم قطاطوة من دون أصل مشتتين في صحرا سينا؟!

– ولك إسكتي عيب فضحتينا، يسمعك حدا!

قطعت ترحيبات سمية القطاوي الطريق على أمّي وأبي في الشجار. صمتت أمّي فوراً، وأخذت تساعدنا في النّزول من السيارة، وتنزل حقائبنا الصغيرة التي وضعت فيها غياراتنا الجديدة. نزلنا ودخلنا دار سمية التي راحت ترحّب بنا: "يا أهلاً وسهلاً، ما شاء الله عا ها الصبايا الحلوات، تفضلن يا خالتو، إقعدن في الغرفة مع تغريد".

توجّهنا مع ابنتها الكبيرة تغريد إلى غرفة النّوم، وظلّت أمّي مع أبي برفقة سميّة وزوجها وأولادها الخمسة في الباحة.

أشعل توفيق، زوج سميّة، سراجاً من الكاز، ورفع فتيلته كي نستطيع الرّؤية.

زرعت في باحة الدار شجرة ليمون أصفر، وشجرة برتقال صغيرة، كما غطّت جدار الدّار ياسمينة خضراء تهبّ رائحتها مع هبوب نسيم الفجر البارد. جلسنا جميعنا على الفراش الأرضيّ، فامتعضت أمّي من القماش الذي يغطيه مقارنة مع فراشنا في قرية بومعيز، وبدا اشمئزازها من البقع التي تغطي الفراش.

رفضت أمّي احتساء كوب الشاي الزّجاجي بعدما رأت الصّراصير الصغيرة تحوم حول الصينية النحاسيّة، وتظاهرت أنّها تعاني من الحموضة. وفيما ذهب توفيق، زوج سميّة، ليجلب صينية المنسف الكبيرة التي أعدّها لاستقبالنا من المطبخ ترافقه زوجته سميّة، وشوشت أمّي في أذن أبي: "ما أقرفها وما أقرف دارها وكبياتها اللي ريحتهن بيض. عنجد إنكو يا البدو مقرفين، وعمركو ما بتصيرو بني آدمين".

علمت أمّي أنّ لهذا الاستقبال الكبير ولهذه العزيمة دوافع أخرى غير كرم القطاطوة واستضافتهم الكريمة لها ولبناتها، وقرأت جيّداً ما يدور في بال أبي من خطط مستقبليّة في التقرّب من عيل البدو، فيصبح له سند في هذه الحياة بعدما فشل في إنجاب ذكر وقد شارف أبوه على الموت، ولم يبقَ له أحدٌ ليحمل اسم العائلة من بعده غير عائلته في الأراضي المحتلة، عائلته الّتي ظلّت في أراضيها ولم ترحل خلال النكبة، ولكن كيف له في التواصل مع أفرادها ورؤيتهم وهو ممنوع من دخول أرض أبيه بعد أن تشرّد وأصبح لاجئاً.

تجمّعنا معاً حول صينيّة المنسف، فيما أتت سميّة باللبن والسلطة الفلسطينيّة والفلفل الأخضر الطازج. أكل الجميع، ولم تأكل هند متحجّجة بنا وبأنها انشغلت بإطعامنا، فيما ظلّت سميّة تحدّق إلى وجوهنا وأجسادنا، وتتفحّصنا الواحدة تلو الأخرى، وترى طريقة أكلنا وطريقة جلستنا وضحكاتنا وحتّى خجلنا.

بدورها، كانت أمّي تراقبها لتتأكّد من شكوكها، وجنّ جنونها حين عرضت سميّة على أبي أن ننام ونغادر في اليوم التالي، فصارت تضغط على يديه بقوّة، وترسل له نظراتها الناقمة، وانفجرت لصمته: "وين بدك تنيم بناتك في جحر مع ولاد عزابية؟ قوم الله بعين كلها كم ساعة وبنكون في دار أبوك وبنام عا راحتنا".

استأذنت أمّي من سميّة في استخدام حمّامها لغسل شعورنا ووجوهنا وتغيير فساتيننا قبل العودة للحشر في السّيارة.

سخّنت سميّة البابور، واستحممنا.

شكرناها، وودّعناها، وعدنا لنزجّ كخراف العيد في مؤخّرة السّيارة.

وصل أبي إلى الحدود المحتلة في منطقة الشونة بين الأردن وفلسطين، وترك سيّارته، وركبنا تاكسي العبور، ثمّ مشينا نحو نقطة التفتيش، وانتظرنا ساعات طويلة حتّى أكل الذباب وجوهنا.

جلسْنا على الأرض بجانب أمّي، وصار أبي يجوب في الصّالة المغلقة ذهاباً وإياباً، يسترق السّمع إلى جنود يهود يتحدّثون مع بعضهم بعضاً، ويدّعي أنّه لا يفهم العبرية التي يتحدّثون بها، بينما

يقترب لترجمة ما يحدث لأمّي.

جلسْنا بجانب أمّي يغطّي الإرهاق والقلق وجوهنا، فيما نفترش أرض الصالة بأجسادنا المستلقية على البلاط، ننتظر إذن الجندي اليهوديّ لنا بالدخول.

يحيط بنا مسافرون آخرون، ويصل إلى مسامعنا بكاء طفل رضيع تحاول أمّه تهدئته لكن دون جدوى. يصرخ زوجها في وجهها لتسكته، فيشتدّ بكاء الرّضيع، وتبكي المرأة لبكائه.

وصل دورنا، ونادى الجنديّ باسم والدي بالعربية: "فزاع حرب".

ركض أبي، وهبّت أمّي خلفه: "إنتو ما في تفوتو عشان ما في قوشان (شهادة الميلاد) للبنت الصغيرة!".

تردّ أمّي مقاطعة: "ما إحنا رايحين نضيفها عا هوية أبوها، ها شوف اسمها مضيوف عا كرت الوكالة عند الأمم المتحدة".

لم يبالِ الجنديّ اليهوديّ لما تقوله، وأخذ يتفحّص كارت وكالة الغوث، فوجد اسم أمل، ولم يجد اسم أختي الأصغر منها صابرين.

– حجة، ما فيه اسم، وين؟

ردت أمي: "ما هي توم هي وأختها، وهاي اسم أختها عا الكرت شوف، إنتو بدكو تفوتو أختها وهي لأ؟".

– توم؟

– آه توم، هم الخليجية غلطوا في التوثيق وما كتبوها وكتبو أختها بس، يا إبني الخليجية بفهموش وبعرفوش يكتبوا!

– كيف توم يا حجة؟ وحدة طويلة وحدة قصيرة؟!

– إنت بتعترض عا خلقة الله؟! شوف هيك إنت طويل وهديك الجندية قصيرة، البنت طالعة قصيرة عا أبوها.

– طيب، خليكي هون أنا بشوف ظابط.

نظر أبي إلى أمّي متعجّباً من استرسالها في خداع الجنديّ دون أيّ خوف وصراخها وتوبيخها له كأنّها على حقّ، فيما استغربت أمّي من تسلسل أفكارها، كأنّها كانت متدرّبة على ما ستقوله من قبل. أقبل الجنديّ نحوها من جديد يرافقه ضابطان من جيش الاحتلال. بكت أمّي مقتنعة أنّهم قد افتضحوا أمرها وجاؤوا لحجزها بسبب كذبها.

سألها أحد الضّبّاط بصوت مرعب ولهجة عربيّة محلّيّة صحيحة: "ليش بتبكي؟"

– من معاملة الحرس الأردني عا الحدود، الذبان أكلنا، والقذح عبى عنينا، ريحة الصنة كتلتنا، عا القليلة إنتو عندكو في كرسي نظيف الواحد يركن ظهره عليه!

حدّق إلى وجهها الضّابط، وأخذ يتحدّث في جهاز لاسلكيّ علّقه على أعلى كتفه.

أخذنا نبكي بسبب بكاء أمّي، فكنّا إن انهارت، انهرنا معها، فيما أبي متعجّب من بكائها المفاجئ.

تقدّم الضّابط اليهوديّ الآخر وسأل أختي الكبيرة كفاح إن كان حديث أمّي صحيحاً، فأجابت من دون تردّد: "آه توم، والله توم،

وحدة طالعة لأهل أمي ووحدة لأهل أبوي!

اختفى الضابطان، وعادا بعد خمس ساعات.

نمنا في حضن أمّي، فيما حاول أبي الإنصات إلى كلّ كلمة يتفوّه بها الجنود اليهود من حولنا لعلّه يسمع خبراً مطمئناً يريح بالنا. لم يرق لأمّي بال، ورفضت اقتراح أبي العودة إلى دار سميّة القطاوي لقضاء الليلة في منزلهم ومحاولة العبور من جديد في الصّباح.

– والله ما بنام غير في غزّة اليوم!

– يا مرا وحدي الله هادول الله بطلعش معهم براس!

– ملكش فيي، بدك تروح روح أنا هيني قاعدة مع بناتي!

ظلت أمّي جالسةً على الأرض ونحن في حضنها. وعند اقتراب ساعة إغلاق المعبر، تقدّم إليها أبي: "قومي، قومي سمعتهم بحكو فينا، أجى دورنا".

قفزت أمّي من مكانها، وأخذت توضّب فساتيننا، وتهمس لنا بصوتٍ خافتٍ: "تخافنش إذا فرقوكن يسألوكن، كلّ وحدة بتقول إنو أملٍ وصابرين توم! ما تحكنيش ولا إيشي غير هيك، وصيحن وصرخن إذا ظلو يسألوكن وخفتن".

فعلنا ما أوصتنا به أمّي التي نجحت في إقناع الضباط بأنّ أمل التي تكبر صابرين بثلاث سنوات هي توأمها!

مرّ الأمر على ما يرام، وصدّقوا كلام أمّي التي لم تبتسم وظلّت عابسة كي لا يفتضحوا أمرها. فقد أيقنت أنّها ستظلّ تحت المراقبة

المشدّدة حتّى خروجها كليّاً من المكان، وحتّى دخولها دارنا في حارة السود.

لكنّها رمت أبي بنظرات الانتصار لتذكّره بدهائِها في حلّ المشكلات، وبأنّها دائماً على صواب في إصرارها لتنال ما تريد دون خوف.

عدنا بعد التحقيق إلى حضن أمي، عيوننا محمرّة، يسيل المخاط من أنوفنا المتورّمة. وبعد هذا التّعب كلّه، وحين كادت أختي الصغيرة صابرين تفضحنا تحت مراقبة الجنديّ اليهوديّ، لطمتها أمّي على وجهها بقوّة: "هيك وسختي فسطانك الجديد، أي والله لأدبحك".

لم تفهم صابرين ما حدث، وانفجرت باكية، ما أزعج الجنديّ اليهوديّ، فأمرنا بدخول غرف التفتيش الدّاخلية ليتخلّص من وجودنا.

رافقنا الجنديّ اليهوديّ إلى طابور يقف فيه جميع المسافرين، وعاد إلى غرفة الانتظار الخارجيّة.

انتظرنا في طوابير بين حشود من المسافرين ينتظرون مثلنا أن يناديهم الجنود اليهود بأسمائهم للتفتيش.

اقترب دورنا، وأمرونا الواحدة تلو الأخرى أن ننظر إلى شبّاك مغطًّى بلصاق أسود يمنعنا من رؤيتهم، لكنّهم يستطيعون رؤيتنا.

نادى صوت مجهول من خلف النافذة أبي، فلبّى النّداء، وسلّم تصريحه لجنديّ سلّمه للشخص المسؤول خلف النافذة، ومررنا

الواحدة تلو الأخرى بحسب ترتيبنا المسجّل في الهوية، ثمّ نادوا أمّي التي أصرّت على الاحتفاظ باسم عائلتها هند أبو شنب ولم تغيّره إلى عائلة زوجها. شاهدنا العديد من النّازحين من حولنا يبكون لرفض تصاريح دخولهم، وآخرين مُبعدين أمنيّاً لا يحقّ لهم العودة أبداً إلى فلسطين يودّعون أهاليهم للمرّة الأخيرة. أعطتنا امرأة حقيبة فيها هدايا كي نوصلها إلى أهلها في معسكر خانيونس بعد أن منعوها من عبور الحدود لانتهاء تصريحها ورفض تجديده.

دخلنا أخيراً غرفاً منفصلة للرّجال والنّساء تمّ فيها تفتيش أجسادنا بعد أن تمّ تفتيش شنطنا الجلديّة الكبيرة في قسم الحقائب.

بدأت الجنديّة نعف المخدّات الّتي حشتها أمّي بالملابس والشراشف لتزيين دارنا في غزّة، فيما دعت الجنديّة أمّي إلى دخول غرفة التّفتيش الجسديّ بمفردها، وطلبت منها أن تتعرّى كليّاً غير آبهة لتوسّلات أمّي بالاحتفاظ بملابسها الدّاخلية بسبب الدّورة الشهريّة.

عدنا ننتظر أمّي في قسم الحقائب، فيما رفعت جنديّة شقراء صغيرة "سوتياناً" وشريطاً من الدّانتيل الأسود عالياً، وانفجرت ضاحكةً في وجه الشاب المسافر الواقف أمامها مطأطئاً رأسه بخجل، وحدّثته بلكنتها العربيّة المكسّرة: "إنت بتلبس كلسون بنت؟".

استدعى موقفها المحرج وسؤالها ضحك الجنديّ الآخر الذي يجلس بجانبها ويرشّ نفسه بعطرٍ أخذه من حقيبة أحد المسافرين،

فيما تسمّر الشابّ في مكانه يهرب بنظره منها ومنّا ومن عيون المسافرين الموجودين في صالة التّفتيش. وردّ بصوت خجول: "هادول جهاز العرس لخطيبتي شريتهم من عمّان، أنا نازل أتجوز".

وبعدما انتهينا من مراحل تفتيش الأجساد والحقائب، تجمّعنا من جديد مع أمّي وأبي في الناحية الأخرى من جهة العبور، وصعدنا مع الرّكّاب الآخرين في باص يقف على الحدود المحتلة الفلسطينيّة.

بعد ساعة من الانتظار في الباص ذي النّوافذ المغلقة، صعد جنديّ يهوديّ، وطلب التّحقق من الهويّات وتصاريح الدّخول إلى غزّة، ونزل بعدها.

تحرّك الباص وانتهى عذابنا حين رفع الجنديّ اليهوديّ العمود الحديديّ للسّماح للباص بالعبور إلى الأراضي الفلسطينيّة.

نزلنا أخيراً من الباص، وركبنا تاكسي العبور الفلسطينيّ الذي سيوصلنا إلى دار جدّي "أبو ذياب" في حارة السّود.

وصلنا إلى دارنا في حارة السود. فتحنا باب التّاكسي بسرعة، وركضنا ندقّ الباب الحديديّ بشدّة، فخرج إلينا جدّي، ضمّنا إليه، وقبّلنا. ساعد سائق التاكسي أبي في نقل المخدّات المحشوّة والشنط الجلدية إلى عتبة الدّار.

مسحت دموعي، وحضنت جدّي بقوّة، وذهبت فوراً للاطمئنان إلى جدّتي هدباء. ضربتني بعكّازها ظنّاً منها أنّني لصّ يريد سرقة لفاف دخانها. كانونها مشتعل ورائحته تملأ المكان. تجلس هدباء بثوبها البدويّ المزيّن بغرز يدويّة زرقاء، وقد غطّت

رأسها حين سمعت صوت أبي: "فزاع، حرب، فزاع، حرب وينكو! وصلنا".

فأجابها جدي: "آه وصلنا عا حدود غزّة، بكرا بوديكي عا أهلك! هيهن بنات فزاع حواليكي".

لم تكن جدّتي على وعي بوجودنا بعد أن فقدت عقلها خلال هجرتها في الثمانية والأربعين كما أخبرنا جدّي، وجاب بها البلاد مسافراً بها إلى مصر لمعالجتها لكن دون فائدة. أخذت أمّي فوراً ترتيب الدّار وشطفها لاستقبال الضيوف، فيما استلقى أبي على فراش أرضيّ، وظلّ نائماً كالجثة.

اغتنمت الفرصة فوراً، ورغم التعب، تسلّلت إلى دكّان البلبيسي لعلّني أعرف منه أخباراً عن رامي وعبد الله. لكنّني لم أجد البلبيسي. وجدت ابنه الصيدلاني محمد الذي كان يدرس في مصر، وقد عاد ليساعد أباه في الإجازة الصيفيّة. طلبت منه آيس كريم، وساندويشة، وزجاجة سفن أب: "إذا رجعتي القزازة برجعلك الشيكل".

- طيب برجعها شكراً.

هممت بالعودة إلى الدّار، فرأيت حسن ابن أبو ريالة، أخا نضال الصغير، وقد صار صبيّاً. سلّم عليّ، فهربت مسرعة داخل دارنا، فلحق بي وصرخت في وجهه: "خير شو بدك، ليش لحقتني؟!".

- قولي لأمك إنو أمي بدها تيجي تزوركو العصريات.

- طيّب.

أخبرت أمّي، وانتظرت طويلاً إلى حين استيقظ أبي ليستقبل أم ريالة. ظللت جالسةً في الغرفة رغم كرهي أم ريالة أنتظرها أن تتفوّه بكلمة عن رامي وعبد الله أبو كرش. توبّخني أمّي لأنني أجلس في الغرفة مع النسوان الكبار. أذهب وأعود مدّعيةً أنّني أريد تقديم الشاي والقهوة، فتمرّ السّاعات من دون أيّ ذكر لرامي وعبد الله! وبدلاً من الحديث عن الحارة، أخذت تتذكّر نضال، ونظرت إليّ، وظلّت تبكي، وتردّد أنّها تذكّرته حين رأتني، وتمنّت لو كان على قيد الحياة لتزوّجني إيّاه. شكت لأمّي همّها بعد زواج أبو ريالة بامرأة أخرى من العبيد، كان يشتمها وينعتها بالمجنونة الّتي فقدت عقلها، تتابع حديثها عن دار أبو سمرا، فهم من الذين كانوا السّبب في خراب بيتها وقتل ابنها نضال. تهت في حكاياتها، وجاء ضيوف آخرون لزيارة أهلي. وامتلأت الدّار بالمهنّئين بعودتنا والمتفقّدين حال جدّي وجدّتي، ومللت غياب أيّ ذكر منهم أخباراً عن صديقيّ. رافقني حسن أبو ريالة إلى الدّكان فيما بعد لأعيد زجاجة السفن أب، وأجلب المكسّرات للضيوف. أعاد إلي محمد البلبيسي الشيكل، فاشتريت به حلوى راس العبد المحشوّة ببياض البيض المخفوق، المغطّى بالشوكولاتة والمثبت على بسكوتة دائرية صغيرة. اشتريت واحدة لي، وواحدة لحسن، واشترينا المكسّرات لأمّي. وبينما هممنا في طريقنا للعودة إلى الدّار، شعرت بيد ثقيلة تمسك بكوع ذراعي اليمنى وبيد أخرى تشدّ حسن من قبّة قميصه. نظرت إلى الخلف، فرأيت جنديّين من

اليهود يحملان أسلحة معلّقة بشريط أسود على كتفيْهما، يمسكان علبة دهان حمراء وفرشاتين كبيرتين، ويتوجّهان بنا إلى حائط "أبو أيمن" المطلّ على الشارع العموميّ. طلب أحد الجنديّين بعربية مكسّرة: "يالله إمسخ خاذا مكتوب".

أصابني الذّعر، ورأيت الخوف يلتهم وجه حسن ليرتجف واقفاً. سقطت الحلوى من أيدينا، وسقط كيس المكسّرات بين دارنا ودار "أبو أيمن". أمسك كلٌّ منّا بفرشاة دهان ندسّها في العلبة الصّغيرة ونمسح ما كُتب على الحائط المهجور من شعارات ثوريّة تطالب العمّال بالإضراب العام يوم جمعة الغضب في معسكر جباليا احتجاجاً على بقاء الاحتلال.

لم أعِ ما حدث، وشعرت أنّني أعيش في كابوس صلّيت أن ينتهي فوراً. انهالت على عقلي الصغير مشاهد الثوار والجنود والحجارة الّتي كنّا نتابعها مع أبي على شاشة التلفاز في قرية بومعيز. شعرت أنّني لم أترك الحارة أبداً، وأدركت تماماً أنّني لم أكن أشعر بالخوف من وجودهم كما أشعر في هذه اللحظة والبندقية مصوّبة نحو ظهري والأخرى على ظهر حسن. تمنّيت لو يخرج أبي أو أمّي للحظة لإنقاذنا، لكن لم يحدث ما تمنّيت، ومرّت الدّقائق كالدّهر.

رأيت العرق يتصبّب من جبين حسن وسرواله الذي تبلّل وهو يتابع دهن الجدار ويداه ترتعشان. تابعت دهن الجدار معه إلى أن اختفى الكلام تماماً، وحين انتهينا، والتفتنا إلى ورائنا، كان

الجنديّان قد رحلا. ركضنا في اتّجاه الدار. فستاني متّسخ بالدّهان الأحمر. هرب حسن إلى داره وما عدت رأيته. بحثت عن كيس المكسّرات، ووجدته في مكانه مغطّى بالتّراب. مسحت التّراب عنه، وتوجّهت إلى المنزل أتخيّل كم كان رامي شجاعاً كي يتحمّل كسر عظامه بالحجارة الكبيرة. دخلت المطبخ أرتجف وأنا أوزّع المكسّرات في الصّحون المزخرفة. أخذت أختي أمل الصّحون لتقدّمها. هربت إلى خلف الدار لأبتعد عن ضجيج الضّيوف وأصواتهم المرتفعة ولأستوعب ما حدث.

## X

مضت خمسة أيّام على زيارتنا جدّي "أبو ذياب" ولم تخلُ الدار من زيارات أهالي الحارة. وفيما كانت أمّي مشغولة باستقبال الضيوف، كنّا نذهب، أنا وصابرين، لمساعدة جدّتي آمنة أبو شنب في أعمال تنظيف دارها الكبيرة بناءً على طلبٍ من أمّي. نصل إلى دارها صباحاً، ونعود منهكتيْن متعبتيْن عند العصريّة. كان جدّي ينهرني إن رآني أتحدّث مع الصّبية الصّغار الذين يأتون بصحبة ذويهم ليحلّ جدّي "أبو شنب" مشكلاتهم.

تتوالى طلبات جدّتي علينا لغسل الثياب والمواعين وشطف البلاط، ولسوء حظّنا، كانت نظيفة إلى حدّ الهوس. نصمت حين تبدأ الحديث عن معاناتها تحت خيم الوكالة بعد تهجيرها. تذكّرنا بحادثة ولادة خالي هاشم على الحدود بينما كانت تمشي خلف جدّي هاربين من القتل بعدما هُجّرا من قريتهما في بيت جرجا، وكيف اضطرّت إلى شقّ طرف ثوبها لتمسح به الدّماء عن رضيعها، وتلفّ بجسده لتحمله بين ذراعيْها وترضعه.

استطاع جدّي أبو شنب حين وصل إلى حارة السود تشييد داره الجديدة خاصّة بعد أن اختير ليكون مختار الحارة بسبب حكمته وصرامته في حلّ القضايا المتشابكة. وحوّل في غضون سنوات قليلةٍ الدّار إلى عمارة صغيرة من طابقيْن يعيش فيها مع جدّتي في الطابق الأرضيّ، كما تمكّن من استعادة حديقته الجميلة في قرية بيت جرجا ونقلها إلى داره الجديدة في حارة السود وحوّلها إلى جنّة صغيرة. يقضي معظم أوقاته في زرع الفلفل الأخضر، والطماطم، والخيار، والعنب الحصرم الأخضر الذي يتدلّى ليغطّي مجلس الضيوف الخارجي. زرع جدّي أيضاً البصل الأخضر، وورد الجوري البلديّ الذي تملأ رائحته شوارع الحارة. ما كان ينغّص على جدّتي هو اقتراب بيتها من الشارع الذي يفصلها عن دور العبيد، وكانت تعتقد دائماً أنهم سينطّون من فوق الحيطة ليسرقوا بيض دجاجتها. حين علمت أنّهم يأكلون من الليمون المتساقط من غصن شجرتها المتدلّي خارج الجدار، قطعته.

كنّا ننتهي من أعمال التنظيف عند الخامسة عصراً، فلا تتركنا نرحل إلّا بعد أن تشمّ البلاط لتتأكّد من نظافته ورائحته المنعشة. ثمّ تدخل المطبخ لتمرّر بأصابعها على المواعين، وتتأكّد من أنّنا لم نترك أثراً لصابون الليمون عليها، ولم نستخدم إسفنجة الطناجر لغسل كؤوس العصير الزجاجيّة. وبعد أن تنتهي من التأكد من النظافة، تفتّش ملابسنا حتى تتأكّد من أنّنا لم نسرق شيئاً ولم نضع شيئاً في جيوب فساتيننا. كنّا نشعر بالنّحس إن اختيرت واحدة منّا لتبيت عندها،

لأنّه عليها أن تستيقظَ فجراً لتذهب إلى مزرعة "أبو منصور" لتعبئة زجاجات الحليب الطّازج. ولسوء حظي ونحسي الذي يلاحقني، جاء اختياري، فسخرت منّي أخواتي، وعدْن فرحاتٍ إلى دارنا، وبقيْت، أنا المنحوسة، في دار جدّتي ألعن حظي وألعنهنّ.

استيقظت جدتي آمنة عند الرّابعة فجراً، وأدارت المذياع على صوت إذاعة "صوت القرآن" من القاهرة، توضّأت وصلّت. سمعت زجاجات الحليب الفارغة تقترب من باب الغرفة حيث أنام، فأحكمت بالغطاء على رأسي لكي تدعني وشأني. أدارت جدّتي أوكرة الباب وفتحته، وسحبت الغطاء عن وجهي وجسدي: "نايمة لهلقيت، قومي طلع النهار، قومي عبي القزايز وجيبي حليب لجدكي!".

استيقظت وأنا أفرك بعينيّ وأحاول جرّ قدميّ إلى حوض الغسيل في ساحة الدار الخلفيّة لأغسل وجهي بالماء البارد. تناولت الزّجاجات الفارغة، وخرجت من الباب الحديديّ الخلفيّ. حاولت أن أشقّ طريقي عبر العتمة، وخفت من أن يوقفني جنديّ يهوديّ فيعتقلني ويكسر عظامي كما فعلوا برامي. أسرعت بخطاي لكي أصل إلى بيارة "أبو منصور" بيّاع الحليب، ودفعت البوّابة الحديديّة الخضراء بيدي. دخلت، فاصطدمت بطابور النساء الجالسات في انتظار "أبو منصور" الذي كان يحلب بقراته. اقتربت أكثر، فلمحت أم ريالة تتحدث إلى شابّ في مقتبل عمره. صبّحت عليها. فوجئت بوجودي في مثل هذا الوقت المبكر من

الفجر، وشدّتني من يدي، وقالت: "شو بدكيش تسلمي على رامي؟ مش الحساب كنتو صحاب؟!".

صعقت ممّا سمعت، ولم أستوعب ما قالته وخلت أنّني في حلم. نظرت إليه بلمحة خجولة فما عرفت وجهه. أصبحت له لحية طويلة تغطّي وجهه، فأخفت نكزاته الجميلة. لم تعد ملامحه كالتي عرفتها قبل أن نرحل عن الحارة. دقّت زجاجات الحليب بعضَها ببعض حين حاولت تبديلها من يدٍ إلى أخرى لأسلّم عليه. هممت بمصافحته، فسحب يده فوراً ورفعها إلى صدره: "متوضي! الحمد الله عا سلامتكو! سلمي عا أهلك!".

رمى عليّ هذه الكلمات ورحل حاملاً زجاجاته الممتلئة. ردّت أم ريالة بعد رحيله لتطمئنني: "معلش يا خالتي من بعد ما كسروا اليهود إيده بطل يسلم، وصار متدين ومنعزل عن الناس!".

حزنت لرؤية رامي على هذه الحال، ولم أتوقّع أبداً أن يصير بهذا الحزن الذي بدا على وجهه. رامي الفتى الوسيم الّذي كان يتباهى بسراويل الجينز الجديدة في كلّ مرة صار ذا لحية يرتدي جلّابية قصيرة! مات الصّبي الذي عرفت. مات الذي علّمني ركوب الدراجة وأمضيت طفولتي معه في التسكّع في بيارة الصبار. عدت وأنا أفكّر في ما رأيته، أحمل زجاجات الحليب الممتلئة تارةً بيدي اليمنى وتارةً باليسرى لأرتاح قليلاً من ثقلها. فتحت الباب الخارجيّ بقدمي، وناولت جدّتي الزجاجات، وساعدتها في تحضير الفطور.

## XI

يجلس جدّي أبو شنب في الصّالون، ويدير مفتاح المذياع المستدير ليعدل صوت إذاعة "بي بي سي" العربية، ويرفع صوته. يرتشف القهوة التي حضّرتها له جدتي، وعند السّابعة تماماً يبدأ الزائرون الدّق على باب داره. يستقبلهم للفضّ في مشكلاتهم. يأتون إليه من أنحاء قطاع غزّة شتّى، ويهدونه مقابل حلّه مشكلاتهم رطلاً من السّكّر أو حلوى "التّوفي" إن كانوا من الفقراء، أو علبة شوكولاتة "الماكنتوش" وعلبة البسكويت المستديرة الزرقاء الدنماركية إن كانوا من الأغنياء. تخبّئ جدتي آمنة العلب الثمينة في غرفة نومها المنفصلة عن غرفة نوم جدّي بعد أن تدسّها في حقيبة سفر جلديّة كبيرة تحتفظ بها فوق الخزانة. وعدت أخواتي أن أهديهنّ شوكولاتة، فدخلت غرفتها بينما كانت منشغلة في استقبال الضيوف، وتسلّقت على طرف السّرير. أخذت أشدّ بطرف الشنطة إلى جهتي، وفتحت سحاب الشنطة، ثمّ أدخلت بيدي أبحث عن العلبة. اصطدمت أصابعي بعلبة الشوكولاتة الورقيّة، مزّقت جانبها،

وأخرجت ما استطعت من حبّات. أخرج الحبّات بصعوبة وأنا أستمع بحذر لوقع خطوات جدّتي آمنة، فأعلم إن اقتربت لأهرب قبل أن تصل إلى الغرفة وتفضح أمري. حشوت جيبيّ، ودفعت الشنطة إلى مكانها، وخرجت من الغرفة مسرعةً باتجاه الباب الحديديّ الخارجي قبل أن تنقضّ عليّ، لكنّها أمسكت بي من قبّة فستاني فيما هممت بالخروج، وقرصتني من أذني: "إيش وين شاردة لسه ما خلصتيش شغل؟".

– لأ يا ستي مش شاردة بس بدي أسكر باب الدار بلاش العبيد يخشو.

– طيب ياالله انقلعي لمي البيضات من الخم وحطيهن في سلة القش.

تنفّست الصّعداء لأنها لم تفتّشني. ذهبت إلى الخمّ على مضض، أركل الدّجاجات برجلي، أنعف التراب من تحتها لعلّني أعثر على ذهبها الذي خبّأته في التراب وأسرقه. خبّأت بيضتيْن في جيب فستاني، ووضعت ما تبقّى في سلة القشّ الصّغيرة. وضعت السّلة على درجات المدخل، وهربت قبل أن تمسك بي للمرّة الثانية. عدت إلى دار جدّي "أبو ذياب" وبطني فارغ تتعارك مصارينه. دخلت الدّار، وناولت أمّي البيضتيْن، وأخبرتها أنّهما هديّة من جدّتي لتشكرها على إرسالنا إليها لمساعدتها. فرحت أمّي، وفرحت أخواتي، وأخذنا جميعنا نلعق أوراق الشوكولاتة الفضّية السّائحة.

فكّرت في رامي أبو كرش وما آل إليه من حال. بحت بهمّي لأختي الكبيرة كفاح، فأخبرتني أنّها سمعت البلبيسي يخبر أبي أنّه أصبح متديّناً بعدما اعترف بقتله نضال الذي كان على علاقة بأخته رندة، إذ خدعها بحبّه لها وفضّ بكارتها واعداً إيّاها بزواجه بها. لم أعد أعلم أيّ حقيقة سأصدّق. فأنا أعلم أنّ رامي هرب من القطاع قبل مقتل نضال، لكنّني أذكر جيّداً ذاك المساء الممطر حين رأيت قميصه يغطّيه الدم. في حارة السود، حين يدبّ الملل، يكثر الخيال، ويصبح القيل والقال حديث الناس.

كذّبت ما سمعته فوراً. فرامي، رغم نوبات غضبه، قد يتشاجر ويركل ويضرب، لكن لن تصل به الأمور إلى حدّ القتل. لم أصدّق كلام أختي خاصّة أنّني أعلم مدى كره البلبيسي لأولاد أبو كرش وغضبه على رامي بعد أن هجم على دكّانه بسبب تحرّشه بأمّه ورفضها الزواج به. ظلت الأسئلة تدور في رأسي، وأحاول فكّ لغز استمرّ طوال تلك السنين. تمنّيت لو أرى عبد الله، فيساعدني في إيجاد الحلول والإجابات عمّا يحدث لرامي.

## XII

كنّا ننشر الغسيل مع أختي أمل حين اقتربت من بابنا الحديديّ امرأة بدينة تلبس داير "تنورة" سوداء طويلة من القطن تغطّي بها الغزاويات فساتينهنّ الطويلة، وأدلت برأسها من خلف بطانية الدّار. عدّلت أمل شاشتها البيضاء.

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام.

– وين أمك يا خالتي؟ أنا زهرة أبو راس البربراوي من معسكر جباليا إجيت أسلم عا أمكي وأبوكي!

– تفضلي يا خالتي أهلا وسهلا فيكي!

دخلت المرأة برفقة أمل التي أسرعت لتنادي أمّي لاستقبالها، ثمّ عادت لتنشر الغسيل معنا. أخرجت كفاح السّردين لتنظيفه في السّاحة الخلفيّة، فتركنا أمل والغسيل، وذهبت وصابرين لنحيط بإيمان ونشاهدها تشدّ رؤوس الأسماك الصغيرة فنسرقها فوراً ونلقي بها إلى القطط المشرّدة من أعلى الحائط.

– إنزلن يا متصبينات إنتي وإياها، ولك إستحي عا طولك يا نص نصيص مفكرة حالك صغيرة، إنزلي يا هرشة.

ذهبت لأغسل يدي، أنا وصابرين، فاصطدمنا بالمرأة العجوز، ورأينا وجه أمّي يبتسم، تشدّ على يد الضيفة لترافقها إلى البوّابة:

– أي والله بدري، خليكي قاعدة تغدي معنا.

– لا والله مستعجلة عندي كم زيارة قبل الظهر ما يأذن.

– يالله يا ستي شرفتينا ويا مرحبا بيكي.

– يالله بخاطركو.

– مع السلامة.

عادت أمّي إلى المطبخ وهي لا تزال ترسم الابتسامة على وجهها، تنتظر عودة أبي من عند صديقه سعد الصّريف. غسلت السّردين، غطّته بالطحين، وألقت به في فقّاعات الزّيت المغليّ، وأخرجته بعد أن استوى على ورق الجريدة المقوّى ليمتصّ الزّيت. رتّبته في صحن زجاجيّ بنيّ شفّاف، وعصرت عليه الليمون، ورشّت باقة من البقدونس المفروم الطّازج على وجهه. سخّنت الخبز، وطلبت منّا تحضير السفرة الأرضيّة. أكلنا، وتركت بعض السّمكات في الثلاجة لأبي، وحين وصل حضّرت له السمك ودخلت الغرفة، طردتنا منها لنلعب خلف الدار، وأغلقت باب الغرفة لتتحدّث إليه على انفراد.

في غضون يوميْن، توجّهت أمّي مع أبي إلى منزل جدّي "أبو شنب" على غير عادتها. عادةً ترسلنا وتبقى مع أبي لاستقبال

الأصدقاء ورعاية جدّتي هدباء وجدّي المريض "أبو ذياب"، بينما نذهب بمفردنا لمساعدة جدّتي في التنظيف اليوميّ. فوجئنا بصوت المرأة البدينة في دار جدّي "أبو شنب" تجلس في الصّالة الخارجية التي يستقبل فيها أبو شنب ضيوفه، وتصطحب رجلاً ذا شعر وذقن أسود تغزو رأسه خصلٌ بيضاء. كان طويلاً، أسمر البشرة، يغطّي كتفيه العريضتين بكوفيّة حمراء. حين وصلنا، دخلت جدّتي آمنة وأخذت المرأة إلى غرفة ضيوف النساء مع أمّي بسرعة، وبقي أبي مع الرّجل الغريب في صحبة جدّي "أبو شنب".

أغلقت جدّتي باب المجلس في وجوهنا، وأمرتنا بتحضير الشاي والقهوة وصحون الفاكهة المقطّعة. جاءت إلينا أمّي في غضون نصف ساعة، وطلبت من أمل أن تأتي معها لتقدّم الشاي، فيما بقيت مع كفاح نقطع الفاكهة ونضعها في صحون التقديم. دخلت أمل غرفة النساء، وشعرت أنّ أمراً غريباً يحدث. فأمّي لا تقبل أبداً أن ندخل غرف النّساء، وتنهرنا إن جلسنا معهنّ. لحسن الحظ أنّها لم تغلق الباب جيّداً، فوقفت وكفاح لنسترق النظر ونعرف ما يحدث. شاهدْنا أمل تقف في منتصف المجلس، تلفّ من حولها المرأة، وتمسك بشعرها الأسود الطّويل بعد أن فردته وأخذت تتفحّص عرض خصرها. لم أفهم ما يحدث. رأيت كفاح تبتسم، وحين اقتربت أمل من الباب لتخرج، هربنا. وبمجرّد خروجها، شددتها من يدها، وسألتها: "شو صار؟ ليش أخدوكي لجوا؟ شو بدها منك المرا وليش مسكتلك خصرك وفلتت شعرك؟".

– ما بعرف بس أمي قلتلي إني أفرد شعري لتشوفو المرا، وبعدين طلبت مني إني ألف ضهري عشان تشوف جنابي.

– ـشو؟ ليش بدها تشوف شعرك وجنابك؟ لتكون هاي المرا غولة زي اللي بتخرفنا عنها أمي.

– ما بعرف، أمي وجدتي قالنلي متخافيش.

استغربت ما يحدث مع أختي أمل. سألت أختي كفاح عن الأمر، فردّت أنّ أمل مريضة مصابة بمسّ من الجنّ، وقد طلب جدّي من هذه المرأة أن تعالجها لأنّها مشعوذة تحلّ مشكلات البيوت والناس عن طريق السّحر. صدّقت ما قالته كفاح خاصّة بعد وجع يصيب أمل في بطنها عند نهاية كلّ شهر، وبعد فقدانها الشّهيّة منذ معرفتها بمرض جدّي "أبو ذياب". أطلقت كفاح سراحي، وأخبرتني أنها ستظلّ مع أمل في المطبخ لتقديم المكسّرات للضيوف، وأنّني أستطيع أن أكمل اللّعب مع أختي صابرين في ساحة دار جدّي الخلفيّة.

حين عدنا إلى بيت جدّي "أبو ذياب" في المساء، وبعد أن استحممنا، نحن البنات، ولبسنا فساتين نومنا البيضاء القطنية، خلدنا إلى الفراش، وظلّت أمّي مستيقظة في غرفة الجلوس مع أبي بجانب جدّتي هدباء التي تنام في سلام. ادّعيْتُ أنّني سأذهب إلى الحمام، واسترقت السمع من جانب الحائط في الممرّ الذي يقع بين غرفة نومنا والصالون: "بنتك بتحب، شفتها بترسم قلوب عا دفاتر المدرسة تبعاتها".

– يا مرا وحدي الله البنت فيهاش ايشي، هي ما بتحب توكل بشتريلها فاتح شهية وبتنحل مشكلتها.

– يا شيخ زي ما بقولك البنت من يوم ما التفت عا بنات القطاطوة في المدرسة وهي خربت وصارت تسرح.

– يا مرا خلص تضلكيش تزني اللي الله كاتبو بدو يصير.

– طيب، الزلمة شهم وابن حلال بدكش تستر على البنت بلكي بنفتح الباب عا خواتها من بعدها؟

– بنشوف شو بصير قومي خليني أريح ساعتين الناس جايين من الصبح.

سمعت سعال جدّتي هدباء، فخفت وهربت إلى غرفة النوم لأنام بين أخواتي. استغربت كلام أمّي مع أبي، وشعرت أنّها تدبّر شيئاً مقلقاً لأختي أمل مع تلك المرأة البدينة. رافقت أمّي جدّتي هدباء إلى الحمّام لقضاء حاجتها، فأغمضت عينيّ، ونمت إلى جانب أخواتي.

استيقظنا في الصّباح، وذهبنا إلى دار جدّي "أبو شنب" من جديد. رأينا صواني الكنافة الكبيرة وصواني البقلاوة تملأ صدر الدّار، وشاهدْتُ المرأة البدينة والرجل ذا الخصل البيضاء في الصّالون الكبير، ورجلاً مسنّاً يلبس عمامة رماديّة يجلس بجانب جدّي "أبو شنب". أخذت أمّي أمل إلى غرفة نوم جدّتي، وزيّنتها، وألبستها فستاناً مزركشاً كالذي كنّا نلبسه في أيّام العيد في قرية بومعيز. أعارته إيّاها أمّ العبد جارة جدّي "أبو شنب"، فهي تملك

محلّ تأجير ملابس خطوبة وزفاف.

خرجت أمل، وأخذتها المرأة لتجلسها إلى جانب الرّجل الغريب ذي الحطة الحمراء التي تغطّي كتفيْه. قرأ الجميع الفاتحة. فرحت أمّي، وقدّمت الشّاي والحلويات إلى الضيوف، وخرجت أمل إلى الشرفة حيث كنّا نصطفّ، أنا وبقية أخواتي، متّكئات بظهورنا على الحائط، نراقب تفاصيل ما يحدث. فزعت حين رأيت دموع أختي كفاح تنهرها جدتي آمنة: "إنخمدي ليش بتصيحي، غرتي من أختك ولا إيش؟".

زغردت المرأة البدينة، وصدح صدر دار "أبو شنب" بالزغاريد وبمهاهاة جدّتي: "آويها وإحنا عادتنا نركب الخيل، آويها ونلبس الحرير أكمامنا للإيدين. لولولووووي!".

توجّهت كفاح لتنضمّ إلينا على الشرفة وأخذت تبكي بحرقة، نبكي لبكائها ولا نفهم ما يحدث. تحدّثنا بصوت متقطّع: "أمل كتبو كتابها، جدّتي آمنة ضحكت عا أمي وبدها تجوزها، أمل مش راجعة معنا عا القرية!".

لم أصدّق ما سمعت، فأمل لا تزال صغيرة لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها ولديها امتحانات دراسيّة في آخر العام. كيف سأصدّق كفاح وهي من قالت لي إنّ هذه المرأة مشعوذة وستشفي أمل من آلام بطنها المتكرّرة. نظرت من جديد إلى الصّالون، فرأيت الرّجل الغريب يقترب من أذن أمل، فيهمس لها كلاماً، فتبتسم خجلاً من دون أن تنظر إلى وجهه. دفعت أختي كفاح بيدي،

وسرقت سكّين قطع الفواكه من يدها، ونزلت إلى مزرعة جدّي عند مدخل الدّار. أفكّر في ما يحدث والصّدمة التي تلقّيتها، وكذب أختي كفاح في موضوع رامي والآن أمل! أسمع الزغاريد تتوالى وتصل إلى المزرعة، وأتأكّد من أنّ ما قالته كفاح صحيح، وأنّ أمل لم يكن ذنبها سوى تدويرة قمرية رسمت لتشكّل وجهها، وبياض بشرتها الذي ورثته عن جدّتي هدباء. ففي حارة السود، يعجب الناس بالبياض، وتتمنى النساء البياض لأبنائهنّ حتى يأتوا بذريّة تشبه الأجانب بعيداً عن بشرة العبيد القاتمة.

صرت أسمع المهاهاة، وأتمنّى لو أنّ دبّوراً من دبابير الحديقة يدخل حلق جدّتي، فتختنق وتموت واقفة وهي تزغرد بسبب ما فعلت. صرت أقطف ثمار الطماطم وألقيها على الحائط، أنكش التراب، وأجتث جذور الورود الجوريّة. صببت جام غضبي على الورود والخضار أقطعها من جذورها بالسكين لكي يموت قلب جدّي حسرةً على وروده وتعبه في الاعتناء بها، ولكي أنتقم من جدّتي. فتحت باب الخمّ، وركلت الدجاجات لتهربَ من الخمّ خارج الدار، إلى الشارع الفاصل بين دار جدّي ودور العبيد لكي تهنأ ببيضها مجاناً فتغتاظ جدّتي وتموت قهراً.

صرت أركض بعد أن تركت باب الدّار مفتوحاً على مصراعيْه. وصلت دون أن أعي إلى بيارة الصبار. فتحت الباب، ودخلت والغضب يُعميني، فلا أرى أمامي. صرت أعفر الرمال لعلّني أجد جثة رندة التي يزعم أهالي الحارة أنها دفنت هنا في البيارة. لم أجد

شيئاً. اتّجهت إلى آخر البيارة غير آبهة بوخز الصبار في جسدي. اصطدمت بجسد صبيّ يسقي حجارة بالماء. ضربته بذراعي ليبتعد عن طريقي، فسمعت ضحكاته: "هيه هيه مالك يا هبلة، ليش بتضربي".

صرخت في وجهه: "كلكو خونة، كلكو في ها الحارة المعفنة خونة وجواسيس، كلكو عملا لليهود".

لم يفهم الصّبي ما يحدث. لحق بي كي يهدّئ غضبي. علق شالي على صبارة. حاولت نتشه فتمزّق طرفه. أخذ الصبي الطرف الممزّق، وضحك منّي: "ولك شو ما عرفتيني؟ ولي يا هبلة ما عرفتي مين أنا؟".

- واحد واطي مين بدك تكون، أصلاً في ها الحارة السودة فش إلا الواطيين.

- ولك إهدي طيب خلينا نعرف نحكي.

- شو بدك مني، إنقلع لألم عليك الناس.

- ولك أنا عبد الله نسيتيني!

تسمّرت في مكاني، وأدرت وجهي لأراه. دقّقت في ملامحه. لم يتغيّر بل ظلّ كما هو بوجهه الطفوليّ الأسمر الذي ازداد جمالاً. ابتسم لتظهر أسنانه التي رسمت بعناية. وقف أمامي كأننا لم نرحل أبداً عن البيّارة. يكاد ينفجر ضاحكاً، لكنّ خوفه من انفجاري في وجهه من جديد يسكته. يلمّ شفتيه بإصبعيْه كي لا تبان ضحكته. توتّرت ولم أعرف كيف أتصرّف! هربت من فمي الكلمات،

صرت كمن خيّط فمه، فها هو من انتظرته منذ سنين يتجسّد أمامي ويسخر من غضبي. لم أتوقّع أبداً رؤيته من جديد، وحين وددت مصافحته، تذكّرت للحظة أنّه لم يسأل عنّي ولم يأتني لاهثاً، وقد كنت متأكّدة من أنّه علم بالخبر من أخيه رامي. نظرت إليه، وبحركة قويّة، صفعته على وجهه، وخرجت مسرعة باتّجاه باب البيارة.

شعرت بخطواته يسرع خلفي للّحاق بي. حملت طرف فستاني الذي اتّسخ بالتربة المبتلّة. ركضت فركض ورائي. اختبأت بين الزواريب الضيّقة بين الدور المجاورة للبيارة في مخيّم جباليا. نظرت من خلف الحائط لأتأكّد من أنّه ابتعد قليلاً، فسمعت صدى صوته يبتعد ضاحكاً: "بحبّك يا خوتة!".

غطّيت فمي بالشال أكتم صرختي. اغرورقت عيناي بالدّموع الحارّة، أتخيّل أنّ ما سمعته ورأيته هو من محض الخيال في رأسي. مسحت دموعي ومُخاطي بكمّ فستاني. أبكي وأضحك فيما يرنّ صوته في أذنيّ، يخبرني أنّه يحبّني وأنني خوتة. وددت لو أنّ الأبله لحق بي إلى هذا الزاروب واختبأ معي لأقبّله على خدّه. ورغم فرحي للقائه بعد سنوات الفراق المفاجئ، فإنّ الغصّة والمرارة لما سيحلّ بأختي أمل أعادتاني إلى رائحة المجاري في الزاروب، وإلى مواء قطط جائعة، وإلى توبيخ رجل عجوز لأطفال ألقوا الكرة في ساحة داره!

عدت مرهقةً إلى دار جدّي "أبو ذياب". وجدته نائماً في فراشه. جلست، وأسندت ظهري إلى الحائط، سرحت في تجاعيد وجهه،

وفي النّار التي أوقدها لجدّتي هدباء. سرحت في صوت الحطب المتآكل في النيران. أتذكّر كلّ تلك الصّور والأوراق الثبوتيّة التي أحرقتها جدّتي دون أن تعي أنّها أحرقت ماضياً لن يعود! فمنذ حرقها، لم يبقَ لنا غير الحكايا نسمعها قبل النوم لتبقينا يقظات دون أن يأكلنا الغول الذي حاول أكل جبينة على الجمّيزة!

تمعّنت في أساور جدّتي الفضّية البرّاقة، وفي وشم أخضر يزيّن ذقنها وأعلى جبينها، ورأيت كم هي جميلة بظفائرها التي تشبه في لونها رماد الفحم في الكانون النحاسيّ أمامي. فكّرت في قصّة حبّ جدّي وإخلاصه لها وقد عرف عن قبيلته تعدّد زوجاتهم، ورغبته في أن يعالجها ليردّ لها ما سلبه الاحتلال منها! ما فكّرت في إخلاص عبد الله الذي يشبه إخلاص جدّي، وكتمانه حبّه لي طوال كلّ تلك السنين. تذكّرت حين كان يطلّ عليّ من الشرفة ليحميني من نضال ومن الجنود اليهود حين ترسلني أمّي في وقت متأخّر لشراء حاجاتها من دكان البلبيسي. أسندت رأسي على مخدة جدّي أتقاسمها معه، وغفوت بجانب الكانون المشتعل وأنا أنتظر عودة والدي وأخواتي من دار جدي "أبو شنب".

استيقظت في الصّباح على طرق الباب. فتحت، فكانت أختي صابرين تطلب منّي أن أحضّر المزيد من الدلات والكؤوس الزجاجية، وأن أرافقها لحملها إلى دار جدّي "أبو شنب". دخلنا الدار، فوجدناها مليئةً بالضيوف المهنئين. اتّجهت إلى غرفة نوم جدّتي وفتحت الباب لأبحث عن أمل. فوجدت نفسي أمام بنت

أم العبد مؤجرة بدل الخطوبة والأعراس. بدت أمامي كالشّيطان تلبس جينزاً ضيّقاً وبلوزة قصيرة تفضح صرّتها. زيّنت أذنيْها بأقراط بلاستيكيّة حمراء دائريّة وكبيرة، ووضعت شريط كاسيت صغير، ورفعت صوت الراديو الفضّيّ عالياً على أغانٍ لجورج وسّوف، بعد أن صفّفت شعرها على هيئة حلقات كيرلي، ورفعت غرّتها الأماميّة إلى الأعلى على شكل موجة بحر عالية ثبّتتها بدبابيس شعر سوداء، ورشّت عليها "سبريه شعر". طردتني من الغرفة فوراً، وظلّت تمضغ علكة بطريقة مستفزّة، فخرجت، وتركت فتحة صغيرة في الباب كي أراقب ما ستفعله بأختي أمل. أمسكت بمقبض الباب كي لا يفلت من يدي. وقفت تصل إلى أنفي روائح "السبريه"، أستمع لصوت "سيشوار الشعر" المزعج ومولّد الكهرباء الممدود بسلك كهربائيّ طويل من دار أبيها "أبو العبد" جار "أبو شنب". لمحت انعكاس وجه أختي أمل المستدير في المرآة تصفّف المرأة شعرها الفحميّ الأسود، وتزيّنه بشريط ذهبيّ لامع، وتلصق القليل من البودرة الذهبيّة على خدّها الأيمن والجزء الأعلى من صدرها المكشوف. ثمّ تطلب منها المرأة أن تثبت رأسها إلى الوراء ولا تتحرّك كي تتمكّن من توزيع كريم الأساس على وجهها، وتبتسم أمل خجلاً حين تطلب منها أن تفتح فمها كي تثبّت لها أحمر الشفاه.

تتزاحم من خلفي صابرين وكفاح كي تتسنّى لهما رؤية ما يحدث، فتدفعان بظهري، وينفلت مقبض الباب وينفتح. أتسمّر في

مكاني، تركض المرأة غاضبة في اتّجاهي، وتدفعني بيدها بحركة قويّة: "قلتلك إطلعي وسكري الباب، بلاش أناديلك أمك تبهدلك، هاي غرفة نسوان".

دفعتني بقوّة لتغلق الباب، فركلتها في قدمها، واتّجهت إلى أمل.

– إبعدي إيديكي الوسخة عن أختي فاهمة، تمسكيهاش يا وسخة!

فقعت المرأة بالون العلكة المنفوخ في وجهي، وضحكت منّي: "شو غيرانة، بدك أمكيجك زيها؟ طيب إقعدي عا التخت وهلقيت بجي دورك!".

غضبت من استهزائها بي، وهربت حين سمعت صوت جدّتي آمنة تقترب من الغرفة حيث أمل والمرأة الغريبة. ملأت الزغاريد والأغاني دار جدّي "أبو شنب"، وسُمع في الحارة صوت الطبل والمهاهاة. لفّ أبي أختي بعباءة أبيه حرب الذي رفض حضور العرس، وزُفّ العروسان من منزل "أبو شنب" إلى منزل العريس. صعد الجميع إلى سطح دار العريس في الطابق الأوّل، وزيّنت حطة حمراء كبيرة "اللوجَ"، وهو خشبة كبيرة حيث صُمد العريسان. وقد زيّنت الحائط صور لجورج حبش وتشي جيفارا وأخرى لأخ العريس الذي استشهد في بداية الانتفاضة.

جلس أبي بجانب "اللوج" على كرسيّ بلاستيكيّ أبيض ليتلقّى التهاني. ترقص أمّي، وترتّب منديلها وهي تهاهي مع جدّتي آمنة، وتمسح عرقاً تصبّب على وجهها من الرّطوبة، وكحلاً يسيل من

عينيها الحمراويْن المتعبتيْن. وفيما رقص العريس مع الشّباب الدّبكة الفلسطينيّة، لمحت أم رامي وعبد الله تهنّئ أمّي، خلفها عبد الله يسلّم على أمّي، فتقرصه أمّي من أذنه معاتِبة. ألقى نظرات خجولة من حوله يبحث عن وجهي، فأشحْت بوجهي مسرعةً باتّجاه الشباب الذين يدبكون محاولةً تجاهل وجوده، وأعدت النظر في غضون ثوانٍ لأجد أنّه قد رحل. همست أم رامي وعبد الله في أذن أمي كلاماً جعلها تبتسم، فأخذت أمّي تغنّي عالياً: "غيبي يا شمس غيبي متلاقي أنا وحبيبي".

شعرت بخجلٍ شديد، وتمنّيت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني. صعدت بكرسيّ بلاستيكيّ إلى أعلى جدار السّطح بحثاً عنه في الشارع، فرأيته يبتعد ويختفي بين دور الحارة. يعلو صوت الأغاني، وترقص الفتيات على صوت حكيم: "آه ياني منو آه ياني...".

عدت إلى دار جدّي "أبو ذياب" لأعتني به وبجدّتي هدباء بعد أن عاد الجميع إلى دورهم في ساعات الليل المتأخرة. ولم يبقَ على السّطح سوى أهل العريس والعروس والمقرّبين. رافق الجميع العروسيْن إلى غرفتهما، وثبّتوا فرعاً من ورود الحناء وأوراق الريحان على جدارها بالعجين، وعاد والداي مع والدي العريس إلى السّطح ليسهروا معهم، وظلت كفاح وصابرين تتحدّثان إلى أخوات العريس.

في الصباح، ذهبت كلٌّ من أمّي وأختي كفاح لزيارة أختي أمل والاطمئنان إليها في ليلة الدّخلة. وبعد مرور أسبوع على الفرح،

بدأنا لملمة أغراضنا وملابسنا للعودة إلى قرية بومعيز. كانت ليلة العرس هي اللّيلة الأخيرة الّتي رأيت فيها وجه أختي أمل ووجه حبيبي عبد الله أبو كرش. وبعد أن اطمأننّا إلى صحة جدّي الجيّدة، ودّعناه وودّعنا جدتي هدباء، وحشرنا في سيارة سعد الصريف ليوصلنا إلى تاكسي العبور. وصلنا إلى الحدود الأردنية، وركبنا سيّارة أبي، وجلست هذه المرّة في مكان أمل الفارغ بجانب كفاح، وظلّت صابرين في المؤخرة. نظرت من النافذة إلى السّماء، فلم أرَ فيها أيّ نجوم. لم أعد أكترث لعدّ الأعمدة العملاقة التي تنير الشوارع بل رأيت ظلاماً حالكاً بعد أن غاب عنّا وجه أختي أمل المستدير كالبدر، وبعد أن غاب عنّي عبد الله من دون أن أودّعه مرة أخرى. لم أجد في البكاء مواساة لألم أن أنتزع وأجتث من أحلامي ومن ذكرياتي في كلّ مرة أشعر فيها بفرحة في مكان ما. استسلمت للظلمة، وألقيت رأسي على زجاج النافذة لأنام، لأنام فقط متمنّية ألّا أحلم.

## XIII

بعد مرور خمسة أعوام على زواج أمل، وبعد أن زاد الحمل على عاتق أبي وأصبحنا تسع بنات في بيتنا الصّغير في قرية بومعيز، قرّر أبي التخلّص منّي، وعدت معه إلى غزّة لألتحق بالجامعة الّتي فتحها عرفات بعد أن أُخمدت الانتفاضة وعمّ السّلام. التحقت بجامعة الفتح في صيف ١٩٩٧ تحديداً. كنت في الثّامنة عشرة من عمري. فرحت جدّاً حين وصلت إلى القطاع من جديد هاربةً من الحرّ الخانق في قرية بومعيز، فهي تشبه في خنقها قبضة أبي المحكمة على يدي وهو يجرّني إلى محلّ التصوير القريب من الجامعة. أراد أن يُجري بعض النسخ للأوراق الثبوتيّة وصور هويّة شخصية لإتمام ملفّ تسجيلي.

كان يرتدي يومذاك جلّابيته البيضاء، ومن تحتها سروال قطنيّ أبيض كما يفعل البدو في قرية بومعيز. كنت أخجل من وجوده بجانبي، يراقبنا الجميع في محلّ التصوير كأنّنا قادمان من كوكب فضائيّ آخر. وقفت بجانبه أنتظر دوري. تحرقنا الشّمس، فأتمنى لو

لم يكن أبي بجانبي كي أخلع حجابي الأسود الذي شعرت بحرارته كبطّانية أمي الثقيلة تغطيني من برد الأربعينية. وكنت كلّما تأفّفت، نظر إليّ بعينيْن غاضبتيْن فأسكت فوراً. يتصبّب العرق منّي ومنه فيغطّي ظهر جلّابيته، وما زاد شعوري بالحرارة التنورة الخضراء الفستقيّة الطويلة التي حاكتها لي أمّي لتجلب إليّ بخضارها الحظ السّعيد في يومي الجامعيّ الأول. لكنّ الحظّ تحوّل إلى نحس في هذا اليوم الحارق كأنّنا انتقلنا بحرّ الصحراء معنا إلى هنا، فصدرت من إبطي رائحة عرق كريهة، وتمنّيت ألّا يلاحظَ ذلك أحد.

أخيراً وصل دوري، فدخلت مع أبي المكتب. وبينما كان يتحدّث إلى صاحب المحلّ، توجّهت إلى مرآة صغيرة ذات أطراف بلاستيكية زرقاء مكسورة من جانبها العلويّ لأعدّل منديلي الأسود الطويل، ثمّ اتجهت إلى مروحة كهربائيّة مثبتة على وجه الزبائن قرب كرسي التصوير، فاقتربت بوجهي منها، واستمتعت بقليل من الهواء. يراقب تحرّكاتي أبي فيما يتحدّث إليه صاحب المحلّ وهو يقرأ أوراقه الثبوتية: "إنت يا حج ابن أبو ذياب من حارة السود؟".

– آه.

– أنا محمد أبوسمرا، أهلي كانو جيرانكو في الحارة.

– أهلاً وسهلاً، بالله تخلصلي ها المعاملة وتصورلي البنت لأنّا مستعجلين.

– أكيد أكيد، بصوّر الوراق وبعدين بصورها مش حلو العرق يطلع بالصور لإنو بعكس وبلمع.

– طيب، ابدأ بالوراق اذا، شكراً!

– تؤمر يا حج، أبوي الله يرحمو كان دايماً يحكي عن والدك المرحوم "أبو ذياب" ويذكر بأفضالو وكرمو.

– تعيش، الله يرحم جميع أموات المسلمين.

– تفضلي يا أختي إقعدي عا الكرسي واطلعي في الكامرة، والله نيالك بدك تسجلي في الجامعة، خسارة راحت علينا.

لم يرتح أبي لرغو الشاب، ففي فكره أنّ الرغو يكون للنساء فقط. جلست على الكرسيّ الدائريّ، ورفعته قليلاً كي أظهر وسط الصّورة، وطلب منّي الفتى أن أبتسم، فنظرت إلى أبي لكي يعطيني إذنه، فرمقني بنظرة جدّية، فخفت ولم أبتسم بل ظلّ وجهي عابساً. طبع الفتى الصّور الثبوتية الأربع، ودسّها أبي في ملفّ ورقيّ يضع فيه أوراقي كلّها. بعد ذلك اتّجهنا إلى مبنى الجامعة. دخلنا المبنى الكبير الّذي يعجّ بالطلاب وأولياء أمورهم، فأوقف أبي رجلاً مارّاً وسأله عن مكتب التسجيل، فأخبره أنّه في الطابق الأوّل. صعدنا إلى الطابق الأوّل، وانتظرنا في الطابور الطّويل الذي ازدحمت فيه أجساد البنات والشباب إلى حدّ التّلاصق، ما عكّر مزاج أبي، ولم ترق به الحال، فأمسك ذراعي، وأخذ يزيح جسدي كلّما شعر باقتراب جسد أحدهم منّي.

شعرت بتوتّره يزداد، وخفت أن أحدث أيّ حركة أو نظرة فينفجر غاضباً ويفضحني أمام الجميع. تزداد أصوات المتذمّرين كلّما دخل أحدهم من دون احترام المنتظرين، وتختلط بأصوات

الموظفين الذين يصرخون في وجوه المنتظرين طالبين منهم التزام الطابور والوقوف بانتظام. رنين الهاتف لا يتوقّف. أقف بينهنّ أحسد الفتيات اللاتي كشفْن عن شعورهنّ وصفّفنها ليومهنّ الأوّل، وأخريات ارتديْن السّراويل الضيّقة فلفتن أنظار الشباب. جلست أندب حظّي وعيشتي مع المعز والدّجاج في قرية بومعيز والتنورة القطنية الطويلة الخضراء الفستقيّة التي حاكتها لي أمّي.

تنهّدت حين وصل دورنا. دخلنا المكتب بعد ساعة ونصف قضيناها واقفيْن من دون أن يُسمح لأبي بالتدخين، ما سيزيد الطين بلّة إن عكّر الموظّف مزاجه. تنفّست القليل من الهواء الذي تصدره المروحة الهوائية بعد أن ضغطت على زرّ في أعلاها لتلفّ علينا فيما نحن واقفان ننتظر عودة الموظف. وسرعان ما عاد، وجلس ممسكاً ملفّات ذات ألوان مختلفة فصلها إلى جزأين وفق ألوانها، ووضعها على مكتبه أمامنا، ثمّ نفخ في الهواء، وشرب القليل من الماء، وتحدّث إلينا: "تفضل يا حج إقعد، إقعدي يا آنسة".

- تسلم، والله جاي أسجل بنتي في الجامعة.

نظر الشاب إليّ، وسألني: "شو حابة تسجلي؟".

وحين بادرت إلى إجابته، قاطعني أبي: "بدها تسجل تربية إنكليزية، هي بلبل في الإنكليزي، وبدي إياها تطلع مدرسة عشان تساعدني في مصاريف البيت".

قاطعت أبي، وتحدّثت إلى الموظّف: "بعد إذنك عندكو مي، ريقي ناشف".

-طبعاً، طبعاً تفضلي هي سخنة شوي بس الله بعين في ها الحر تفضلي.

شربت الماء وسرحت في ألوان الملفات المنسّقة على مكتبه.

- تربية إنكليزي والله يا حج الطلب كتير عا ها التخصص وما بعرف إذا ظل في وسع.

سررت لما سمعت، وقلت من الفور: "طيب وأدب إنكليزي؟!".

ما إن أتممت سؤالي، حتّى سمعت نفخ أبي في وجهي يردّ على سؤالي بصوت صارم: "أدب إنكليزي؟ إسكتي بلاش هبل، عمر الأدب ما بسكت صراخ البطون!".

شعرت بخجل جديد من سخرية أبي أمام الموظف، ونظرت إلى الأرض، وأجبته بصوت خافت: "صح كلامك، اللي بدك إياه بصير!".

توجّه أبي بحديثه إلى الموظّف، وطلب منه أن يجد حلّاً لكي أسجّل في قسم التربية الإنكليزية لأصبح مدرّسة في مدرسة للبنات بعيداً عن أعين الرّجال. فطمأنه الموظّف وقال له إنّه سيضع اسمي على قائمة الانتظار إلى حين الانتهاء الكلّيّ من التسجيل ورؤية الأمور على نحو أوضح. انتهينا، ونزلنا. مشيت خلف أبي الذي دخّن أخيراً سيجارته، واتّجهنا إلى الكافيتريا لشراء زجاجة كوكا كولا وقنّينة مياه صغيرة.

تمنّيت رحيله عنّي كي أبدّل تخصصيّ إلى أدب إنكليزي قبل فوات الأوان.

## XIV

رحل أبي مطمئنّاً بعد أن ودّعني وتركني في وصاية كرم أبو راس، زوج أختي أمل، بعد أن انتقل معها إلى العيش في دار جدّي "أبو ذياب" بعد وفاته لتعتني بجدّتي المجنونة هدباء. تنفست الصّعداء بعد رحيله، وتوجّهت في اليوم التالي إلى الجامعة لأعدّل تخصّصي إلى أدب إنكليزي، وإن سألني فيما بعد، فسأخبره أنّهم لم يستطيعوا أن يجدوا لي مكاناً في مجال التربية الإنكليزيّة. فرحت، وشعرت بالحريّة للمرّة الأولى في حارة السود، وفي قطاع غزّة المحرّر جزئيّاً، بعد أن توقّفت فيه الانتفاضة وشهد معاهدة أوسلو، وكفلسطينيّين كثر فرحوا لأوسلو. فرحت لتحرّري من سلطة أبي وتسلّطه ومراقبته الدّائمة لي واحتلاله تفكيري والإرهاب الذي يسبّبه لي حين أخاف ألم ضربه وإهاناته.

كنت أقضي غالبية أوقاتي بصحبة الكاتبات اللاتي أنقذن حياتي بقصصهنّ الملهمة، واللاتي امتلكن من الكبرياء وعفّة النفس ما أغاظ الرجال من حولهنّ. قرأت لفيرجينيا وولف،

ولشارلوت برونتي، وللويزا ماي إلكوت، وشعرت أنّهن يحطن بي، وينفخن في روحي نفساً حارّاً لأشعل به حرّيتي، ولأضيء به طريقي. شعرت أنني لم أكن وحيدة في هذا العالم، وأن التّعيسات والمنحوسات اللاتي عبس الحظ في وجوههنّ كثيرات. أنقذتني كوزيت، وانتشلت يدي، وعرّفتني إلى كاتبها فيكتور هوغو، فصار عندي شغف بالأدب الفرنسيّ، خاصة أدب البؤساء. أسعفني الأدب، وأنقذ حياتي، وفتح عينيّ على النور في آخر النفق المظلم.

كنت أعيش تحت الأرض كالخلد وكالعبيد في حارة السود يفصل بيني وبين النور شارع. غرقت في المكتبة ساعات لأهرب من واقعي الأسود إلى آخر حالم يقدّم فيه شاعر ورود بريّة إلى حبيبته، فصرت أغار من حبيبته وأحلم أنّ القصائد الجميلة كلّها كُتبت لي، وأتخيّل نفسي في عربة تجرّها الخيول تحملني إلى مكان بعيد عن حارة السود وقرية بومعيز، فتأتيني موظّفة المكتبة لتقضي على أحلامي كلّها، وتذكّرني بموعد الإغلاق: "يالله تفضلي برا، صارلي ساعة بزعق عليكي، إحنا كمان بشر وبدنا نتغدى".

هويت من سمائي السّابعة إلى مقصف الجامعة، وتوجّهت في طابور يزدحم بالطلبة أمام الفتى الذي يقلي الفلافل. طلبت ساندويشة وضع فيها قرصيْن ساخنيْن ومخللات وشرائح طماطم طازجة. جلست على درج المبنى أنتظر بدء المحاضرة.

عند نهاية الدّوام الجامعيّ، كنت أعود إلى المنزل متأخّرة كي لا أصطدم بكرم أبو راس. أراه من حين إلى آخر يقضي وقته في قراءة روايات من الأدب الرّوسيّ، فيتأكّد كلام أمّي أنّ كلّ الشيوعيّين ملحدون مدعومون من غورباتشوف الذي رسم خريطة على رأسه ليؤكّد أنّه سيحتلّ العالم، ويحلّل الخمر والزنى. كان كرم أبو راس، إلى جانب قراءاته الأدب الروسيّ، يكتب سرّاً رسائل لمعتقلين في سجون الاحتلال، ويزيّن غرفة نومه فوق سريرهما الخشبيّ المخلوعة أطرافه بحطة العرس الحمراء. أتفادى الحديث معه لأنّني لن أنسى أبداً سرقته أمل وزواجه بها وهي طفلة. أدركت لاحقاً، بعد قراءتي الكتب، أنّ زواج قاصر برجل كبير يعدّ اغتصاباً خاصّة إن كانت الفتاة ساذجة ولا تعلم شيئاً عن الحياة الجنسيّة.

كنت حين أصل إلى دار جدّي، أجلس في الغرفة مع جدّتي هدباء، ألفّ لها أوراق التبغ كما كان يفعل جدّي. أساندها لتذهب إلى الحمّام، أملأ جورة الحمّام بالماء فتنتشر الصّراصير على قدمي. أقتلها بنعالي، وأحاول قتل الحشرات الزّاحفة مثل البزاق الأرضيّ الّذي يتغذّى من رطوبة الحمام حيث كنّا نغسل ثيابنا ونستحمّ. اشتدّ التوتر بيني وبين كرم أبو راس بعدما لاحظت بخله الشديد خاصّة حين كان يتناول الغذاء في كلّ يوم خارج الدار كي لا يأتي بأيّ وجبة لنشاركه إيّاها، وبعد أن لاحظت فقدان أختي أمل وزنها على نحو مخيفٍ منذ زواجها

به، وأحاديثها التي تفضفض بها لي في غيابه عن معاملته السيّئة لها، وعن الجحيم الذي عاشته في دار أهله.

كانت حماتها المشعوذة، زهرة البربراوي، تغلق باب الثلاجة بقفل، وتحتفظ بالمفتاح في سوتيانة صدرها كي لا تسمح لأختي بالأكل. وتترك لها كيلو سكر وملحاً وقنينة زيت وما يتبقّى من خبز ناشف بعد أن يأكل زوجها. لم تحدّث أمل والديّ عن مصيبتها وألمها خوفاً من الطلاق خاصّة بعد تحذيرات أمّي أنّها يجب أن تحتفظ بأسرار زوجها ولا تبوح بها لأحد. فكنت كلّما حدّثتني، يجنّ جنوني، فأودّ قتله وخنقه بكوفيّته الحمراء، وحرق كتبه ورسائله وخطاباته القوميّة. وكلّما أرسل إلي والدي القليل من المال، أتقاسمه معها، وأشتري لها الكفتة والدّجاج فتفرح. جننت حين علمت أنّه سرقها وباع ذهب مهرها ليبني بالأموال شقّة له في دار أهله ليؤجّرها. وكلّما رأيته، كنت أبصق على الأرض، وأحاول طرده، فتبكي أختي وتتوسّلني ألّا أفعل وإلّا ضربها وآذاها.

حصل كرم على عملٍ شرطيٍّ مرور في السّلطة الفلسطينيّة، واستمرّ في العمل عاماً ونصف من دون راتب بحجّة أنّ الإسرائيليّين حظروا رواتب الموظفين العاملين لدى سلطة عرفات. ولم يكن لي خيار سوى العودة في ساعة متأخّرة حين يكون زوجها في غرفته، فلا أصطدم به وأفجّر فيه غضبي. تذكّرت ليلة عرسها وابتسامتها الخجولة وهنّ يرسمن على فمها الصّغير الروج الأحمر، وتذكّرت

كم نحن منحوسون لأنّنا نعيش في حارة السود.

فُصلت من الجامعة بعد أسبوعيْن من بدء الدّوام الدّراسيّ، بعد أن ألقيت حجابي أرضاً ودسته بنعالي أمام أستاذ الحديث والسّيرة النبوية الذي كان يتربّص بكلّ فتاة لا تغطّي شعرها في المبنى الجامعيّ للفتيات، خاصة أنّني مللت أحاديث الفتيات عنه وعن تحرّشه بهنّ في مكتبه الخاص حين يغيب عن أعين المارّة في المبنى الجامعيّ. وكما كان شائعاً في الحارة: كلّما طالت اللّحية، قلّ الحياء لدى حاملها.

صرخ أستاذ الحديث في وجهي أمام الجميع ليحرجني أمام الطّالبات الأخريات لأنّ شيلتي سقطت عن كتفي، فانكشف شعري أمامه: "غطي عا راسك يا بنت!".

نظرت إليه بغضب، ودقّقت في ملامح وجهه القاتمة، ووجدت الفتيات يهربْن ليختبئن في جحورهنّ لمجرّد دخوله المبنى: "إنت نزل عينيك، هاض مبنى بنات! إنتا أصلاً شو جايبك هون؟".

اقترب منّي غاضباً، وصرخ: "إنتي ما بتحترمي قوانين الجامعة وكاشفة شعرك وبتواقحي كمان وبتردي عا أستاذك".

- هاي جامعة عرفات يعني فتح مش حماس مين حكي إنو لازم البنت تتحجب؟ وبعدين روح تشطر عا بنات عرفات!

احتنق وجهه لأنّه لم يرَ الخوف في عيني، وطلب من حارس الجامعة أن يطردني أمام الجميع.

– نزل إيديك يا وسخ أنا بعرف وين البوّابة.

خرجت من البوّابة أمام أنظار الفتيات جميعهنّ يلتهمنني كأنّني أجرمت وقتلت أحدهم. وعدْت في صباح اليوم التالي لأجد اسمي قد كتب على لوح يأمر بفصلي بقرار من لجنة ضبط الأمن العام في الجامعة. فخرجت، وتوجّهت إلى دارنا أفكّر في ما سأفعله، وأحاول أن أجدَ الحجّة التي سأختلقها لكي أبرّر لأبي قرار فصلي، هو الذي بنى أحلامه معتقداً أنّني سأنهي الجامعة وأعود إلى العمل مدرّسة في مدرسة بنات كي أعينه في مصاريف البيت، وأساهم في تعليم أخواتي الصغيرات.

ذهبت إلى مكتب الطّلبة التّابع لحركة "فتح" وعرفات لأشكو ما فعله بي أستاذ الحديث بعد أن فضحت سرّه وتحرّشه بالفتيات في مكتبه الخاص. فلم يستجب أحدٌ لطلبي لأنّ اسمي غير مسجّل في الحزب. وبالطّبع، لم ألجأ إلى مجلس طلبة "حماس"، فهم بالتأكيد ضدّي قبل أن أنطق حتّى بأيّ كلمة. شعرت بالعزلة التي لاحقتني طوال حياتي، سواء في مدرسة دلال المغربي حين كانت المعلّمات يفضّلن بنات صديقاتهنّ من المعلمات أو الآن في مبنى الجامعة حيث يجب أن يصبح لك رقمك لكي يكون لديك سند وحماية وإن كنت على حقّ.

فكّرت في حقيقة كوني لاجئة من حارة السود، لا أنتمي إلى أيّ حزب. قرّرت أن أترك الجامعة، وأجد عملاً يعيلني إلى أن ينتهي قرار فصلي بدلاً من العيش في الذّل من جديد. كباقي

سكان حارة السّود وأطفال المخيّمات الذين أصبحوا شباباً، لم نفهم ما يحدث ولِمَ بترنا أيدينا بأنفسنا وتوقفنا عن رمي اليهوديّ بالحجارة. تبدّلت جيبات دوريات اليهود الخضراء بدوريات شرطة السّلطة الزرقاء، وتبدّلت دور الزينكو بأبراج عالية، وسيارة الكركعة بـ"بي إم دبليو" الحديثة. لم نفهم، نحن السّكان في حارة السود، ما يدور من حولنا، وبدلاً من أن يعزلنا عن المدنيّين شارع الجلاء العريض، أصبح ما يفصلنا عن الهواء الذي نتنفسه أبراج شيّدت من حولنا لتخنقنا وتمنع الشمس من دخول دورنا المتلاصقة.

شعرت بضيق يخنقني وظلم يقع على صدري، فبعد كلّ سنوات الغربة والتشتّت والاحتلال والفراق عن أصدقاء طفولتي وحبّي الأول، لم ينظر إلى حالنا في الحارة أيّ شرطيّ أو رئيس مكتب أو حزب، ولم يكترث لأمرنا وفقرنا وجوعنا أحد. لم يعد البحر لنا كي نشرب من ملحه كلّما شئنا، بل سيّج ومنعنا من دخوله لأنّنا لا نمتلك المال الكافي لسداد رسوم دخول الشاطئ.

ذهبت كلّ الحجارة التي ألقيناها على اليهود هباء وشيّدت بها الأبراج لتضيع أحلامنا. أصبح الكلّ يخاف من الكلّ، وأغلقت الشبابيك التي كنا نفتحها لنصبّح على بعضنا بعضاً، واختفت أصوات سكان الدّور شيئاً فشيئاً. لم تعد شوارع الحارة كما كانت بعد أن شيّدت بالإسفلت وأصبحت السيّارات الفاخرة تجوبها ليلاً ونهاراً، فلا نذوق طعم النوم. حتّى أم ريالة انتقلت

لتعيش في خانيونس بعد أن اضطرّت إلى ترك منزلها بسبب غلاء فواتير الكهرباء والماء وضرائب النّظافة العامة. فأخذ عبيد "أبو سمرا" دارها، وانقطعت منذ سنين طويلة أخبار عبد الله ورامي عن الحارة، ولم يبقَ فيها سوى جدّتي هدباء بوشمها الأخضر وظفائرها الرمادية التي تبقيني على قيد الأمل.

## XV

وجدت عملاً كمراسلة صحافيّة لوكالة إسبانية دوليّة تعرّفت عبرها إلى زميل مكتبي طلال، وهو كان يعمل مصوّراً في وكالة **أسوشيتد بريس**. نتشارك المكتب معاً، ونتشاجر كحال كثيرين من سكّان الحارة بعد ازدياد ظاهرة تعدّد الأحزاب السّياسية المدافعة عن حقوق اللاجئين بالعودة وتحرير القدس. انتسب طلال إلى "فتح"، وكان أكثر منّي نضالاً وأملاً في تحقيق سلامٍ عادلٍ نعيش فيه مع اليهود. يقنعني بأنّ أوسلو هي كبصيص نور يُعطى لأعمى عاش حياته كلّها في السواد. يقنعني بأن ألتحق بالحركة مثله لأرى النور.

– عرفات راح يطرد اليهود وراح يفتح المعبر بتشوفي.

– عرفات عامل زي بندول الأونروا بشفيك من وجع الراس وانتي معاك سرطان.

– شو قصدك "حماس" أحسن؟

– لا "حماس" ولا "فتح" كلو زي بعضو.

– آه... طلعتي جبهاوية وأنا بقول ليش فلتانة!

-لا جبهاوية ولا زفت، هيو في دارنا وبتف عليه.

- ها يعني اليهود أحسن؟!

- يعني يا محزبة يا خاينة؟!

كان طلال يصوّر للوكالة وأنا أكتب التّقارير، ونتبادل الأخبار والتقارير اليوميّة. نقلت وضع السّكان في المخيّمات المزدحمة كجباليا ونصيرات والبريج ومعسكر خانيونس، وكذلك معاناتهم من الاحتلال من جهة، ومن الفقر والبطالة وارتفاع معدّلات الجريمة من جهة أخرى. كتبت عن قضية الدّعارة واستغلال فقر النساء للتّجارة بهنّ. حذّرني طلال من خطورة ما أفعل. أيقظني اتّصاله: "ألو".

- ألو في قصف في حي الشجاعية، يالله تعالي بسرعة.

- أوكي راح ألبس وأنزل.

وصلت إلى الحيّ الذي ولدت فيه حيث كان السّكاكيني يعيش في منزله الصغير، وتذكّرت حديث أمّي عن طفح المجاري وعن يوم النّحس. رأيت "طلال" في الواجهة يلتقط صوراً للقتلى والجرحى، وصرت أسجّل ما يحدث. يعجّ الشارع الرّئيسي بالمتظاهرين وبسيّارات الإسعاف التي تحاول شقّ طريقها لنقل الجرحى. اختبأت لأحمي نفسي خلف حاوية القمامة أراقب ما يحدث وأحاول تسجيل ما أرى: صبيّ ملثّم أراقبه من خلف الحاوية يعدّل كوفيته التي تغطي وجهه، ويساعد المتظاهرين في كسر الحجارة لرميها على الجنود. يعوي كلبٌ من بعيد ويسقط

ممدّداً بقرب الزاوية التي اختبأ فيها، وأرى عينيه المثبتتيْن اتّجاهي فيما يفور الدّم من رقبته بغزارة.

ازداد هلعي حين اقترب الملثّم ليختبئ بجانبي. صرخت، فأخرس فمي بكفّ يده بإحكام، ورمقني بنظرة تشعّ غضباً. ألقى نفسه في حاوية القمامة واختبأ. المحلّات جميعها في الشارع مغلقة. زحفت لأختبئ تحت الحاوية النّحاسيّة الكبيرة، فرأيت جزمة عسكريّة سوداء تقترب من الكلب، وظننت أنّهم يبحثون عن الملثّم. أشحت برأسي إلى زاوية الجدار أبكي من الخوف، وأخرس فمي بيدي كي لا يفتضحوا أمري فيقتلونني. ألقى أحدهم بحجرٍ على الأرض ليخفي صوت تهشّمه أنين الكلب. شعرت بخطواتهم تبتعد، فأدرت رأسي لأرى رأس الكلب المهشّم. بكيت بحرقة، وصرت أضرب بيدي وبرجليّ أسفل الحاوية ليخرج منها الملثّم. فجأةً، شعرت بيدٍ تسحبني بعنفٍ من كتفي. جرّني معه الملثّم في اتّجاه عمارة مهجورة في آخر الشارع، واختفى.

توجّهت فوراً إلى كوّة في الجدار نخرها الرّصاص، فرأيته يبتعد ويختفي بين أجساد صبية آخرين ليجرّ معهم الحاوية إلى منتصف الشارع. ازدحم الشارع من جديد بمتظاهرين يحملون جثّة فوق أكتافهم، مردّدين عبارات ثوريّة: "بالروح بالدم نفديك يا شهيد، بالروح بالدم نفديكي يا فلسطين".

رأيتهم مندفعين غير آبهين للصواريخ المتساقطة. وكلّما سقط واحدٌ منهم، هبّ الآخرون لنقله فوراً إلى الجهة الآمنة في الأزقة.

رأيت الملثّم مجدّداً يشعل زجاجة المولوتوف ويلقيها في الاتجاه الآخر، وبينما رفع يده ليلقيها، سقط فجأة على ركبتيْه ممسكاً خصره. ضغط العسكريّ على الزناد وفجّر كبده. سارع المتظاهرون إلى حمله على أكتافهم لينقلوه بعيداً عن مكان القصف.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

## XVI

عند أذان الظهر في الحارة يوم الجمعة، ذهبت إلى مكتب الوكالة مع أختي أمل لنجلب المؤن الغذائية التي تصلنا من التّبرعات الأوروبيّة: كيس طحين وكيس أرز وعلبتان من سمك السردين وكيس من الحليب الأوروبي المجفّف. وقفت معها في الطابور يحيط بنا رجال ونساء ينتظرون دورهم. عدنا إلى الدّار نحمل المؤن، فمررنا بمصلّين في طريقهم إلى المسجد. يرتفع صوت عبد الباسط عبد الصمد وتلاوته **القرآن**، فيما يغطّي سعف النخيل بيت العزاء أمام دار عياش بعد استشهاد ابنه المهندس يحيى. فجّر اليهود سيّارته بقنابل مفخّخة زرعها أحد الجواسيس في العجال الأماميّة بمساعدة ابن عمه. تناقلوا خبر انضمامه إلى حركة "الجهاد الإسلاميّ" في الحارة، ومهارته في صناعة القنابل اليدوية والأحزمة الناسفة للعمليات الاستشهاديّة. رأيت أولاد "أبو سمرا" يجلسون في العزاء، وحسن أبو ريالة الذي كان يقدّم القهوة إلى المعزّين.

توجّهت بعدها إلى "أبو محمّد"، جزّار الحارة، ودخلت

لأشتري دجاجة للغذاء. يقف الناس في طوابير أمام المسلخ. اخترت دجاجة حمراء صغيرة كالدّجاجة المجنونة في قرية بومعيز، تلك التي فلتت من يد أمّي حين حاولت ذبحها، فصارت تركض دائخة يلوّث دمها شراشف السّرير القطنية، فيجنّ جنون أمّي التي تأمرني أن ألحق بها لأمسكها، فأظلّ أركض وراءها إلى أن نقع معاً على رمال الصّحراء الحارّة. سألني أبو محمد هل أريد تقطيعها أم لا، فأجبته بأنّها للحشو، فأبقاها على حالها. عدت إلى دارنا، وألقيت الدّجاجة المذبوحة لأختي أمل. أدرت المذياع على صوت إذاعة "بي بي سي – لندن" لأستمع لأخبار العالم. نظّفت أختي الدجاجة، وساعدتها في تقشير البصل والبطاطا.

– بدك نروح نسلم عليهم ونعزيهم، صارلو خمس شهور مستشهد!

– لا؟

– لا إله إلا الله، يختي يا حبيبتي خلص، إذا أطفال صغار وبستشهدوا.

استمرّت في الحديث، فقاطعتها: "إنتي اللي خلص وسكري عا الموضوع!".

ظلت حسرة استشهاده تمزّق شرايين قلبي، ولم أتحدّث إلى أيّ أحد عن حزني الشّديد منذ قراءتي خبر استشهاده في الجريدة التي ألقاها عامل النظافة على مكتبي يومها. شعرت أنني فقدت طعم الحياة منذ ذلك اليوم.

ذهبت إلى مقبرة الشهداء بعد الغذاء. دفعت البوّابة بيدي. رأيت قبوراً مصطفّة نقش على حجارتها أسماء الشهداء وتواريخ استشهادهم. قرأت الفاتحة، وسلّمت على أرواحهم. لمحت صبيّاً صغيراً مع أخته يحيطان بقبر مع أمّهما. توجّهت إلى قبره، فلمحت رامي يمسك إبريق بلاستيك أخضر ويسقي قبره. اقتربت منه، وسلّمت عليه، تلعثمت في حديثي إليه، وشعرت بحرج شديد لأنّني لم أذهب إلى عزائهم. وقفت إلى جانبه، وصرنا ننظر معاً إلى القبر، ونتأمّل اسمه المنقوش على الحجر الأبيض.

تلعثمت في حديثي وأنا أنظر إلى اسمه المنقوش على القبر، ولم أمتلك الشّجاعة لأواجه بها رامي.

– رامي... أنا... أنناااا

حاولت أن أجد الكلمات المناسبة، لكنّ ردّ رامي قطع عليّ كلّ طرق محاولاتي الفاشلة: "تحكيش إيشي!".

أخرستني نبرة صوته الغاضبة التي حِرتُ في فهمها كعادتي. فلم أفهم هل هو غاضب منّي لأنني لم أدخل منزل خطيبي منذ استشهاده أو غاضب من فقدانه أخاه. تمنّيت لو يتحدّث إليّ ويفجّر الصّمت القاتل، ويفشّ غليله فنبكي معاً. لكنّه كعادته تركني ورحل لأظلّ أمام خيبتي وحزني. كانت تلك المرّة الأخيرة التي سأرى فيها وجه رامي خاصّة بعد أن قرّرت الهرب من هذا الجحيم. قرّرت أن أهرب إلى مكانٍ أكثر هدوءاً وخضاراً!

مكتبة ياسمين

# برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء البرنامج، يمكن القول إنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.